معتقدات قديمة
وخرافات حديثة

مارتن لينجز

• Author : Martin Lingz
• Title: Ancient Beliefs and Modern Superstitions
• Translated by: Tawfeik Mahfouz
• Afaq's first edition: 2019
• Cover Design by: Amr El Kafrawy
• Publishing Consultant: Sawsan Bashier
• General Manager: Mostafa Alsheikh

◆ المؤلف: مارتن لينجز
◆ العنوان: معتقدات قديمة وخرافات حديثة
◆ ترجمة: توفيق محفوظ
◆ طبعة آفاق الأولى 2019
◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
◆ مستشار النشر: سوسن بشير
◆ المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠١٨ / ٣٩٦١
الترقيم الدولي: ISBN
978 - 977-765 - 151 - 6

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة– من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب– القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ – ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ – موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

مارتن لينجز

معتقدات قديمة وخرافات حديثة

ترجمة

توفيق محفوظ

مراجعة

أشرف شنودة

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

لينجز، مارتن.

مارتن لينجز : معتقدات قديمة وخرافات حديثة

ترجمة: توفيق محفوظ

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2019

112 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 3961 / 2018

الترقيم الدولي 6 – 151 – 765 – 977 – 978

1 – الأدباء (فلسفة)

2 – لينجز، مارتن

فهرس الكتاب

• تمهيد	٧
١ - الفصل الأول: الماضي في ضوء الحاضر	٩
٢ - الفصل الثاني: إيقاعات الزمن	٢٩
٣- الفصل الثالث: الحاضر في ضوء الماضي	٤٣
٤ - الفصل الرابع: الحرية والمساواة	٦٧
٥ - الفصل الخامس: العقل والفكر الاستنباطي	٨٣
٦ - الفصل السادس: قد يَتَلاقى النَّقِيضان	٩٩
٧- ملحق ١	١٠٩

تمهيد

ظاهرة خاصة بزماننا، ألا وهي الاهتمام الفائق والمُلِحّ، ليس بالسياسة فقط، ولكنه الآن بالدِّين أيضًا، في اعتبار إذا ما كان هذا أو ذاك «متماشيًا مع روح القرن العشرين». نظام العبادة للقرن الذي نعيش فيه، وهو في الواقع نظام عبادتنا الشخصي، ينتج إطارًا عامًّا للذهن غير مشجع للدين إلى أقصى الحدود، فإنه انتفاخ للنفس وهذا في مجمله غير مطابق للفكر والفهم الحقيقي، ناهيك عن الروحانية.

هذا الكتاب هو محاولة لاستعادة التوازن. إلّا أنه لن يكون هناك أي معنى، لإنصاف الماضى على حساب إنصاف الحاضر، ولا يمكن إنكار أنه توجد، أو من الممكن أن توجد، مزايا روحانية عظيمة لكوننا أحياء في الوقت الحاضر. ولكنه يمكن تقديرها والاستفادة منها بالكامل، فقط شريطة أن نرى عصرنا على حقيقته، وليس كما يقيّمه الذين يعبدون عبادة الأوثان. العالم الحديث مليء بالسخريات، وليس أقلِها أن أكثر المدافعين المتحمسين للقرن العشرين هم، من دون كل الناس، أعماهم عن مزاياه.

مارتن لينجز

لندن

الفصل الأول

الماضي في ضوء الحاضر

هل كان القدماء سيغيّرون موقفهم نحو أجدادهم الأولين إذا كانوا قد عرفوا كل ما يعرفه العلماء المعاصرين الآن؟

هذا مكافئ بطريقة ما لسؤال آخر: هل يوجد عدم توافق حقيقي بين الدين والعلم؟ بسبب أن آراء الأسلاف كانت على قدر كبير مبنيةً على الدين.

لنأخذ في الاعتبار مثالًا أو مثالين من «أَحجار العثرة»، في ضوء كل من الدين والعلم، وليس في غموض أي منهما.

هل يدعي الدين أن أحداث ما قبل التاريخ يمكن تأريخها على أساس ترجمة حرفية للأرقام المذكورة في العهد القديم، وأن تاريخ الخليقة التقريبي هو ٤٠٠٠ عام قبل المسيح؟ لا يجوز أن يدعي مثل هذا الادعاء؛ «لأن ألف سنة في عينيك مثل يوم أمس» (مز٩٠ : ٤)، وليس من الواضح دائمًا أنه عند ذكر الأيام في النصوص المقدسة، كونها أيامًا إنسانيةً أو أيامًا إلهيّةً، كل منها يتكوَّن من «ألف سنة إنسانية» أي فترة

لا يمكن مقارنتها مع يوم من أيام الإنسان.

هل يمكن أن يقبل العلم أن الأرض خُلِقَت منذ ٦٠٠٠ عام؟ من الواضح أنه لا يمكنه ذلك؛ لأن مختلف أنواع البراهين تبيّن بما لا شك فيه أن في ذلك التاريخ كان كل من الأرض والإنسان متقدمين في العمر.

إذا بدا هنا أن العلم يدحض أحرف الكتاب المقدس، فإنه لا يدحض روح هذه النصوص؛ لأنه فضلًا عن البراهين الأثرية والچيولوچية، يوجد أسباب روحانيّة مباشرة لتفضيل عدم الإصرار على المعنى الحرفي في التسلسل الزمني لسفر التكوين. هذا لا يعني أن كثيرًا من، إن لم يكن أكثر، أجدادنا في القرون الوسطى ممن تقبلوا ترجمةً حَرْفيّةً، كانوا أقل روحانيةً أو أقل ذكاءً عنا – بل على العكس تمامًا. ولكن على الرغم من أنهم، كما سنرى لاحقًا، كان لديهم بالتأكيد إحساس نوعي بالزمن أكثر منا، أي، إحساس أكثر تنبهًا بإيقاعاته، فإن إحساسهم بالزمن، بلا شك، كان أقل من ناحية الكمية؛ ولم يسترعِ انتباههم، كما أنه بالكاد يفشل في أن يسترعي انتباهنا، أن هناك شيئًا غير متناغم روحانيًّا في فكرة أن خليقة الله القادر على كل شيء، غير ناجحة بطريقة ملفتة؛ لأنه في خلال وقت قصير جدًّا قرر الخالق ضرورة إغراق الجنس البشرى بأكمله، ما عدا عائلة واحدة، حتى يتمكن من البدء مجددًا. لكن حتى بعيدًا عن مواضيع الزمن، يمكننا القول بأنه يحسب لرجال العصور الوسطى أنهم كانوا متحفظين، ضميرهم كان صحوًا تجاه استخدام التفكير الاستنباطي، كما نفعل نحن، حيث إنهم كانوا مغمورين بشدة بإحساس المسؤولية الإنسانية. إذا كان ما حدث متنافرًا، ناهيك عن أنه بشع، فكل ذلك يلام

عليه الإنسان من باب أولى. بالتأكيد هذه الطريقة في التفكير تقترب من الحقيقة أكثر من بعض اتجاهات الفكر الحديث، ولكنها لا تطابق الحقيقة الكاملة؛ ونحن الذين نميل إلى أن ننظر إلى الموضوع «بتجرد» أكثر، لا يمكننا أن نمتنع عن رؤية أن الله أيضًا له مسؤولياته. رغم ذلك يتبقى لكل واحد منا أن يسأل نفسه عن قدْر سمو تجرده بالضبط، متذكرًا دائمًا أن، في بعض الأحيان، الإنسان الذي يقف خاملًا في الخلاء أسفل الجبل له نظرة أحسن لأوجه هذا الجبل عن هؤلاء الذين يصعدونه فعلًا.

أيًّا كانت الإجابات التي يمكن أن نعطيها لهذا السؤال، تبقى حقيقة أن إحساسنا بما هو لمجد الله وما هو ليس لمجده، فيما يخص التسلسل الزمني المُجَرَّد، يقل تناسبه مع منظور المسيحية في العصور الوسطى عن منظور العالم القديم، تبعًا لذلك فإنه بعد منح الجنس البشري آلاف السنوات من الرفاهية الروحانية، فقط سمح الله لها أن تمر بفترة قصيرة نسبيًّا من الفساد، أو بتعبير آخر سمح لها أن «تتقدم في العمر». في أي حالة من الأحوال، هذا المنظور الأكثر قِدَمًا لا يمكن إزاحته جانبًا بسهولة. وأساس هذا المنظور هو التقليد الخاص بالعصور الأربعة لدورة الزمن والتي أطلق عليها اليونانيون والرومان العصر الذهبي، والعصر الفضي، والعصر البرونزي، والعصر الحديدي، وهي ليست أوروبيةً فقط فحسب ولكنها توجد أيضًا في آسيا في وَسْطِ الهندوس، وفي أمريكا في وَسْطِ الهنود الحمر. تبعًا للهندوسية، والتي لديها أكثر المذاهب وضوحًا في هذا الموضوع، فإن العصر الذهبي كان حقًّا أطوَّل العصور؛ أصبحت العصور تتزايد في القِصَرِ كما أنها تقل في الخير، فالعصر الأقصَر

والأسوأ هو العصر المظلم، والذي يطابق العصر الحديدي. ولكن هذا العصر الأخير والأقصَر، وهو العصر الذي نعيش فيه، يمتد لأكثر من ستة آلاف عام في الماضي. ما يطلق عليه الأثريون المحدثون «العصر البرونزي» ليس له أي علاقة بالعصر الثالث من الأربعة، وما يسمونه «العصر الحديدي» يكاد يتطابق مع جزء صغير من العصر الرابع.

إن تقليد العصور الأربعة القديم والمنتشر عالميًّا لا يتعارض مع سفر التكوين، ولكن مثله مثل إثباتات العلم التي تقترح تفسيرًا مجازيًّا مفضلةً ذلك عن التفسير الحَرْفيّ. على سبيل المثال، فإنه يقترح أن بعض الأسماء لا تشير إلى أسماء أشخاص فقط، بل إلى عصور متكاملة من عصور ما قبل التاريخ، وأن اسم آدم على وجه الخصوص يمكن أن يؤخذ على أنه لا يشير فقط إلى الإنسان الأول، ولكن يشير أيضًا إلى الإنسانية الأولى بكاملها، ممتدةً على مدى آلاف السنين.

❋ ❋ ❋

لكن هل من الضروري للدين أن يَزعَمَ أنه في وقت ما في الماضي خُلِقَ الإنسان في حالة تفوق الكمال، وهى الحالة التي سقط بعدها؟

الإجابة دون أي شك هي نعم؛ لأنه إذا كانت قصة جنة عدن لا يمكن أن تؤخذ حرفيًّا، فإنه من الجهة الأخرى لا يمكن أن تقبل على أنها تعني عكس ما تقوله[1]. ومع ذلك، الغرض من القصة الرمزية هو نقل الحقيقة وليس الأكاذيب. بجانب ذلك، فإن قصص كمال الإنسان الأوّلي

---

(١) لقد أدار تايلهارد دي شاردين Teilhard de Chardin رأسه عن هذا الواقع الواضح، وهنا تكمن إحدى نقاط الضعف الأساسية في وجهة نظره.

وسقوطه اللاحق لا تقتصر فقط على اليهودية والمسيحية والإسلام. نفس الحقيقة وقد تم تغطيتها بمجاز واستعارة مختلفة، وصلت إلينا من زمن ما قبل التاريخ في كل بقاع العالم. في الواقع أجمعت كل الأديان على عدم تعليم التطوّر بل تعليم الانحدار.

هل يتناقض هذا المذهب الديني مع الوقائع العلمية المعروفة؟ هل يجب على العلم أن يحافظ على نظرية التطوّر حتى يكون صادقًا مع نفسه؟

ردًّا على هذا السؤال الأخير، لنقتبس نص الچيولوچي الفرنسي پول ليموان، ناشر الجزء الخامس من الموسوعة الفرنسية (عن «الكائنات الحيّة») الذي وصل إلى أن يكتب التالي في نهاية مقالات المشاركين المختلفين: «هذا العرض يبيِّن أن نظرية التطوّر مستحيلة. في الواقع، على الرغم من الظواهر، لم يعد أحد يؤمن بها. ... التطوُّر نوع من العقيدة لم يعد يؤمن بها قساوستها، برغم أنهم يدعمونها من أجل رعاياهم».

هذا الحكم، آتيًا من موقعه، له دلالته في أكثر من جهة، على الرغم من المبالغة التي لا يمكن إنكارها في طريقة التعبير – أي من جهة تضمنه العام لدور «نفاق» القساوسة في القضية محل المناقشة. لا يوجد شك أن علماء كثيرين قد حولوا غرائزهم الدينية الطبيعية من الدين إلى النشوئية، والنتيجة أن موقفهم اتجاه التطوّر طائفي إلى حدٍّ ما عن كونه علميًّا. عالِم البيولوچيا الفرنسي الأستاذ لويس بونور يقتبس من كلمات أستاذ علم الحيوان السابق في جامعة السوربون، الأستاذ إيڤ ديلاچ التالي:

« أنا أقر دون تحفظ أنه لا يوجد فصيلة قد عُرِفَت أنها ولدت فصيلة

أخرى، وأنه لا يوجد دليل مؤكد على نحو جازم أن مثل هذا الحدث قد حدث ولو لمرة واحدة. ومع ذلك أنا أومن أن التطوّر مؤكد تمامًا كأنه قد تم إثباته موضوعيًّا». ويعلق بونور: «في كلمات قليلة موجزة، ما يطلبه العلم مننا هنا هو عمل من أعمال الإيمان، وفي الواقع إن فكرة التطوّر مقدمة لنا عامة تحت رداء نوع من الحقيقة المُنزَلة».(٢) ومع ذلك فإنه يقتبس من چان بيڤيتو، أستاذ علم المتحجرات المعاصر بجامعة السوربون، تصريحه بأن علم الوقائع، فيما يخص التطوّر، «لا يمكنه قبول أيّ من النظريات المختلفة التي تسعى لشرح التطوّر. بل إنه يجد نفسه في تعارض مع كل من هذه النظريات. يوجد شيء ما هنا مخيّب للأمل ومقلق في نفس الوقت»(٣).

تدين نظرية داروين نجاحها في الدرجة الأولى لاقتناع واسع الانتشار بأن الإنسان الأوروبي في القرن التاسع عشر، يمثل أعلى إمكانية إنسانية أمكن الوصول إليها حتى ذلك الوقت. هذا الاقتناع كان مثل الإناء الخاص المصنوع مقدمًا لنظرية أسلاف الإنسان الدون بشرية، نظرية كانت قد نادى بها علماء الفلسفة الإنسانية دون أي تساؤل كبرهان علمي إضافي لاعتقادهم «بالارتقاء». كان عبثًا أن أقليةً مخلصةً من العلماء، خلال المئة عام الأخيرة، حافظوا بإصرار على أن نظرية التطوّر ليس لها أساس علمي وعلى أنها تجري عكس حقائق كثيرة معروفة، وأنه كان من العبث الدفع بموقف علمي، صارم نحو الموضوع بأكمله. نقد النشوئية،

---

(٢) Le Monde et la Vie, November 1963.

(٣) Le Monde et la Vie, November 1964.

مهما كانت صحيحةً، كان تأثيره مثل محاولة صد موجة مدًّ بحرية. لكن الموجة تظهر الآن بعض علامات على أنها قامت بصرف نفسها، ويزداد العلماء في مراجعة هذه النظرية موضوعيًّا، والنتيجة أن الذين رفضوها تمامًا ممن كانوا يومًا نشوئيين، ليسوا بقليلين. أحد هؤلاء هو بونور الذي تم الاقتباس منه مسبقًا؛ ودوجلاس ديوار هو واحد آخر يقول:

«آن الاوان أن يتفق البيولوچيون والچيولوچيون مع الفلكيين والفيزيائيين والكيميائيين ويقروا أن العالم والكون غامضان ومكتنفان بالألغاز تمامًا، وأن كل المحاولات لشرحهما (بالأبحاث العلمية) كانت محبطةً[٤]؛ وعند تقسيم النشوئيين إلى عشر مجموعات أساسية (مع بعض التقسيمات الثانوية) تبعًا لآرائهم المتعددة فيما يخص أي حيوان شكَّل آخِر حلقة في سلسلة أسلاف «ما قبل الإنسان» المفترضة، آراء كلها حَدْسِيّة[٥] تمامًا ومتناقضة، يقول:

«في عام ١٩٢١ كتب رينك **Reinke**: «إن التصريح الوحيد الذي يمكن للعلم إعطاؤه ويتماشى مع كرامته، [فيما يخص هذا الموضوع]، هو أن يقول إنه لا يعلم أي شيء عن أصل الإنسان». هذا التصريح صحيح اليوم مثله مثل صحته يوم أن أدلى به رينك»[٦].

إذا كان العلم لا يعرف شيئًا عن أصول الإنسان، فإنه يعرف الكثير عن ماضيه قبل التاريخ. لكن هذه المعرفة - للعودة إلى سؤالنا الافتتاحي-

---

(٤) The Transformist Illusion (preface), Dehoff Publications, Tennessee, 1957.

(٥) لأنه لا يمكن لأي نشوئيّ، يهتم بسمعته، أن يحدد أن أي حفرية، وهي غير إنسانية، بأنها من أجداد الإنسان العارف Homo Sapiens» (ص ١١٤).

(٦) ص ٢٩٤.

كانت قد علَّمَت أسلافنا القليل أو لا شيء مما يعرفونه مسبقًا، فيما عدا ما يخص الترتيب الزمني للأحداث، ولا كانت قد تسببت في أي تغيير عام في موقفهم؛ لأنهم عند نظرهم إلى الماضي، لم ينظروا إلى حضارة معقدة ولكن إلى تجمعات قرى صغيرة لديها أقل المؤسسات الاجتماعية؛ وقبل ذلك نظروا إلى رجال عاشوا من دون منازل، في بيئة طبيعية تمامًا، من دون كتب ومن دون زراعة وأيضًا من دون ملابس في البداية. إذَنْ سيكون من الصحيح أن نقول إن المفهوم القديم للإنسان الأوّل، المبني على النصوص المقدسة وعلى المعرفة التقليدية القديمة قِدَم الدهر والمتوارَثة شفهيًّا من الماضي السحيق، كان مختلفًا اختلافًا نادرًا فيما يخص الحقائق المُجَرّدة للوجود المادي، عن المفهوم العلمي(٧) الحديث الذي يختلف عن المفهوم التقليدي؛ خصوصًا بسبب أنه يزن نفس مجموعة الحقائق بطريقة مختلفة. ما تغيّر ليس معرفة كثير من الحقائق بقدر ما هو الإحساس بالقيِّم.

حتى قريبًا لم يظن الناس السوء في أجدادهم الأوليين لأنهم عاشوا

---

(٧) هذه الكلمة تؤخذ بمعناها وتستخدم هنا للأسباب التالية:

(أ) لتستبعد الصور الحيوانية التي تنسب لأسلافنا القدماء في إيضاحات كتب مدرسية كثيرة. كما يعلق أستاذ علم المتحجرات E. A. Hooton : «بسهولة تستطيع استخدام جمجمة نياندرتالى Neanderthaloid كموديل لملامح شمبانزي أو قسمات فيلسوف. هذه المحاولات المزعومة لاستعاده الشكل السابق قيمتها العلمية قليلة جدًّا، إذا كان لها أي قيمة، وغالبًا ما تؤدي إلى تضليل العامة.» (استشهد به ايڤان شوت في كتاب Flaws in the Theory of Evolution, Temside Press, London, Canada, 1966, p. 215).

(ب) ولتشمل أدلة كثيرًا ما تم المرور عليها من دون أي اهتمام مثل جماجم Castenedolo و Calaveras التي تشير إلى وجود «إنسان حديث»، في فترة لم يكن الإنسان العارف قد تطوّر بعد تبعًا للنشوئيين. (See Dewar, ibid, pp. 117-29, and Shute, ibid, Ch. XXI.)

في كهوف وغابات بدلًا من البيوت. في عهد ليس بالبعيد، كتب شكسبير على لسان الدوق المنفي أن الحياة في غابة أردن Arden «مثل الحياة في العالم الذهبي»:

« نشعر هنا بكل شيء إلا بما جوزي به آدم،

باختلاف الفصول ...

وهذه حياتنا حيث إنها خلت من تدخل الناس،

فهي تجد في الأشجار ألسنةً تتحدث، وفى الجداول الجارية كتبًا،

وفي الأحجار مواعظًا، والخير في كل شيء،

وما أود أن أستبدل بها حياة أخرى».

هذه الكلمات لا يزال يمكنها أن تثير صدى جديًا في بعض الأنفس، ارتقاء أكثر من مجرد قبول جمالي؛ وقبل شكسبير، طوال العصور الوسطى ورجوعًا في أقصى التاريخ الماضي، لم يخلو وقت لم يكن للعالم الغربي ناسكون، وبعض منهم كانوا ضمن أكثر الرجال المبجلين في جيلهم. ولا يمكن أن يكون هناك أي شك في أن هؤلاء القلائل الاستثنائيين الذين عاشوا في محيط طبيعي شعروا بشفقة ورحمة نحو عبودية اعتماد إخوتهم على «الحضارة». أما بالنسبة للشرق، فإنه لم ينقطع تمامًا عن الإحساس القديم بالقيّم، وهي تبعًا له إن أحسن محيط للإنسان هو محيطه الأوّليّ. على سبيل المثال، في أوساط الهندوس ما زال مثل أعلى –وامتياز– للإنسان أن ينهي أيامه وسط عزلة الطبيعة العذراء.

بالنسبة للذين يستطيعون أن يدركوا تلك وجهة النظر بسهولة، ليس من الصعب عليهم أن يروا أن الزراعة، بعد الوصول إلى درجة معيّنة من التطوّر، بعيدًا عن الإشارة لأي «نمو»، أصبحت في الواقع «طرف الوتد الرفيع» من المرحلة الأخيرة في انحطاط الإنسان. هذا الوتد الذي يتألف بلا شك من مئات الأجيال الإنسانية في سرد العهد القديم، يُلَخص في شخص قابيل، الذي يمثل الزراعة بتمييز عن الصيد أو رعاية القطيع، وهو أيضًا الذي بنى أول مدن، وارتكب أول جريمة. تبعًا لتفسيرات سفر التكوين، كان قابيل «شغوفًا بالزراعة»؛ ومثل هذا التعلُّق، من وجهة نظر الصياد-وراعي القطيع الرحَّال والفلاح حارث الأرض العابر، كان خطوةً منحدرةً حادةً: الزراعة الاحترافية معناها الاستقرار في مكان واحد، والذي يؤدي إلى بناء قرى، التي تتطوَّر عاجلًا أو آجلًا إلى مدن؛ وفي العالم القديم، مثلما كانت حياة راعي الأغنام مرتبطةً دائمًا بالبراءة، وكانت المدن تعتبر دائمًا، إلى حدٍّ ما، كأماكن للفساد. يقول لنا تاسيتوس **Tacitus** إن الألمان في عهده كان لديهم رعب من البيوت؛ وحتى اليوم يوجد بعض الناس الرحَّالة أو أشباه الرحَّالة، مثل الهنود الحمر الذين لديهم احتقار تلقائي لأي شيء قد يثبتهم في مكان واحد، وبذلك يقيِّض حريتهم مثل الزراعة.

«ليس لدى الرجل الأحمر أي نيّة ’لتثبيت‘ نفسه على هذه الأرض حيث كل شيء، تبعًا لقانون الاستقرار، وأيضًا قانون التكثيف -يمكن أن نقول ’التحجر‘-، قابل أن يصبح ’مبلورًا‘؛ وذلك يشرح مَقْتَ الهنود للبيوت، وبخاصة المبنية بالحجارة، ويشرح أيضًا غياب الكتابة، والتي

تبعًا لهذا المنظور 'ستثبت' و'تقتل' التدفق المقدس للروح.»[٨]

هذا الاستشهاد بالنص يأخذنا من موضوع الزراعة إلى موضوع معرفة القراءة والكتابة؛ وفي هذا الصدد يمكننا أن نتذكر أن الدَّرْويد Druids (كهنة سلت القدماء) أيضًا، كما يقول لنا قيصر، تمسكوا بأن تدوين مذاهبهم المقدسة سيكون انتهاجًا لقدسيتهم. يمكن تقديم أمثلة أخرى كثيرة لإظهار أن غياب الكتابة، مثل غياب الزراعة، يمكن أن يكون له سبب موجب؛ وفي أي حالة، مهما كنّا معتادين على الاعتقاد بأن البراعة اللغوية الفائقة لا تنفصل أبدًا عن معرفة القراءة والكتابة، فإن لحظةً واحدةً من التفكير كافية أن تُظهر أنه لا توجد علاقة أساسية بين الاثنين؛ لأن الحضارة اللغوية مستقلة تمامًا عن الأبجدية المكتوبة، والتي تأتي كملحق متأخر جدًّا في تاريخ اللغة على الإجمال. كما قال أناندا كوماراسوامي Ananda Coomaraswamy بخصوص ما أسماه «هذه الطبقة الكاملة من الأدب النبوئي التي تتضمن الكتاب المقدس والڤيدا والإيدا والملاحم العظيمة عمومًا 'أحسن الكتب' في العالم»:

«كثير من هذه الكتب كانت موجودةً قبل تدوينها بوقت طويل، كثير منها لم تدوَّن أبدًا، وآخرون فُقِدوا أو سيُفقَدون»[٩].

رجال أميون لا يمكن حصرهم كانوا أساتذة لغات معقدة التركيب.

«أميل إلى أن أفكر في أن اللهجة المميزة يتحدث بها من هم أكثر

---

(٨) فريثچوف شيون، لغة الذات، Language of the Self, p. 220 (Luzac & Co., London for Ganesh, Madras, 1959).

(٩) A. K. Coomaraswamy (The Bugbear of Literacy, p. 25 (Denis Dobson, London, 1949).

أُمّيةً في الجزر ... رجال ذوي رؤوس صافية وذاكرة رائعة، هم عامة في غاية الفقر والتقدم في السن، يعيشون في أركان بعيدة من جزر بعيدة ويتحدثون اللغة الغَيْلِيَّة فقط»(١٠).

«قدرة التقليد الشفهي على نقل كميات كبيرة من الآيات لمئات السنين مثبوت ومعترف به... هذا الأدب الشفهي، كما يسميه الفرنسيون، ليس صديقًا للتعليم. الحضارة تدمره وفي بعض الأحيان بسرعة مذهلة. عندما تبدأ أمة في القراءة ... ما كان من قبل في حوزة الشعب بأكمله، يصبح ميراث الأميين فقط، وقريبًا يختفي تمامًا إذا لم يُجْمَع عن طريق دارسي الآثار»(١١).

«إذا أردنا أن نختار العامل المنفرد الذي تسبب في انحدار الحضارة الإنجليزية في القرى يجب علينا أن نقول إنه معرفة القراءة والكتابة»(١٢).

في هبريدس الجديدة (جزر تاريخية في إسكتلندا) **The New Hebrides** «يتعلم الأطفال عن طريق السمع والمشاهدة ... من دون كتابة، والذاكرة مثالية، والتقليد مضبوط. يتعلم الطفل الذي ينمو كل ما هو معروف (من المعرفة) ... الأغاني نوع من الحكايات يرويها المغني ... مكتبة كاملة تكوِّن النسق والمحتوى لآلاف الأساطير التي يتعلمها الأطفال (تبلغ الكلمة حد الكمال في أحوال كثيرة، وقصة واحدة قد تدوم لساعات) ... نسيج من الكلمات المغزولة يستحوذ على السامعين».

---

(١٠) J. F. Campell, Popular Tales of the West Highlands.

(١١) G. L. Kitteredge in his introduction to F. G. Childe's *English and Scottish Popular Ballads*.

(١٢) W. G. Archer, *The Blue Grove*, preface (G. Allen & Unwin, London, 1940).

يتحدثون معًا « بكلمات بهذه الدقة وهذا الأسلوب الجميل الذي افتقدناه ... يتعلم السكان الأصليون الكتابة بسهولة بعد التأثر بالجنس الأبيض. يعتبرونها كأداء غريب وعديم الفائدة. يقولون: 'ألا يستطيع الإنسان أن يتذكر ويتحدث؟'»(١٣).

بالإضافة إلى كل هذه النصوص المستشهد بها، والمأخوذة من كوماراسوامي، يمكن ملاحظة أنه بين عرب ما قبل الإسلام كانت عادة نبلاء مكة أن يرسلوا أولادهم لتربيتهم في وسط بدو الصحراء؛ لأنه كان من المعروف أن هؤلاء البدو الذين يجهلون القراءة والكتابة تمامًا يتحدثون لغةً عربيةً أفصح من إخوتهم «المتحضرين» في المدينة.

عامةً، لا يوجد شك في أن الحضارة تقلل من حدة التنبه واليقظة، وهي صفات لها أهمية قصوى في الحفاظ على اللغة. معرفة القراءة والكتابة، على الأخص، تُسَكِّن مخاوف الإنسان بإحساس من الأمان الزائف عن طريق إعطائه الانطباع أن الحديث الدارج يوميًّا لم يعد الخزانة الوحيدة التي يحفظ فيها كنز اللغة؛ وفور ترسخ فكرة اللغتين، المكتوبة والمتحدَث بها، فإن اللغة المتحدث بها يحكم عليها بالانحدار السريع نسبيًّا، وفي النهاية تسحب معها اللغة المكتوبة – يشهد على ذلك الترجمة الإنجليزية الجديدة للكتاب المقدس.

وصل انحدار اللغة المتحدث بها في الغرب هذه الأيام إلى درجة أنه على الرغم من أن الإنسان يقبل مشقة تدوين أفكاره إلى حد ما، أما كبرياء الحديث فإنه أصبح شيئًا مجهولًا تقريبًا. حقًّا يتعلم الشخص أن

(١٣) T. Harrison, *Savage Civilization*, pp. 45, 344, 351, 353 (1937).

يتجنب أشياء معيَّنة في الحديث، لكن ذلك يرجع لأسباب اجتماعية محضة، وليس لها أي شأن بثراء الصوت أو أي صفة موجبة أخرى يمكن أن تمتلكها اللغة. ومع ذلك، الطريقة التي يتحدث بها الإنسان تبقى كعامل مؤثر في حياته أهم بكثير عن الطريقة التي يكتب بها؛ لأن لها تأثيرًا تراكميًّا على النفس لا يمكن أبدًا لكتابة متقطعة أن يكون لها نفس التأثير.

غني عن القول أن الغرض من هذه الملاحظات ليس إنكار أن للألفباء المكتوبة استخداماتها. في مسار الأحداث الطبيعية، تتجه اللغة إلى الانحدار، حتى وسط الذين يجهلون القراءة والكتابة، وأحداث مثل النفي أو السيادة الأجنبية يمكنهما أن يسببا نسيان كل أنواع الأشياء في مدة قصيرة بصورة تثير الدهشة. على سبيل المثال، كم من الميراث الروحاني لليهود كان يمكن أن يكون قد فُقِدَ لولَا السندات المدونة؟ في أي حالة، الوحي المتجلي في بعض فنون الخط اليدوي يشير إلى أن بدء تسجيل الإنسان للكلمة الشفهية بالكتابة كان «بأمر من الله»، وليس «بسماح من الله» فقط. رغم كل ذلك، إنها ليست الكتابة، بل الطباعة هي المسؤولة عن تحويل العالم إلى كومة من قمامة الكتب الموجودة اليوم. مع هذا لا يمكن أن يقال إن الكتابة أنعمت على الإنسان بأي تفوّق، أبدًا، ومن دون شك سيكون من الحقيقي أن نقول إنها أصبحت ضروريةً فقط، كأهون الشرور، بعد الوصول إلى نقطة معيَّنة من الانحدار الإنساني.

من جهة أخرى، كان الحديث دائمًا يعتبر أحد أمجاد الإنسان. في اليهودية، كما في الإسلام أيضًا، نجد مذهب أن آدم تعلَّم اللغة الحقيقية بالوحي الإلهيّ، أي تعلَّم اللغة الي يتطابق فيها الصوت تمامًا مع المعنى.

هذا التصور أن حديث الإنسان الأوليّ كان أكثر اللغات تعبيرًا بصورة مثالية، أو (أكثرها) استعمالًا للكلمات التي يوحي لفظها بمعناها، هو من دون شك خارج نطاق أي تحَقُّق لعلم اللغة. مع ذلك، يستطيع علم اللغة أن يعطينا فكرةً واضحةً عن النزعات اللغوية العامة للجنس البشري، وبذلك فهو لا يدرسنا أي شيء يتماشى ضد التقرير التقليدي. على العكس، إن كل لغة معروفة لنا هي شكل مخفض من لغة أكثر قِدَمًا، وكلما عُدنا إلى الوراء في الزمن، كلما أصبحت اللغة أكثر تأثيرًا وقوة. وتصبح اللغة أكثر تعقيدًا أيضًا، بحيث إن أقدم اللغات المعروفة، هذه اللغات الأقدم بكثير من التاريخ نفسه، هي الأكثر دقةً وإسهابًا في تركيبها، متطلبةً تركيزًا أكبر وحضورًا ذهنيًّا للمتحدث عما تطلبه أي من اللغات اللاحقة. يتجه مرور الزمن دائمًا إلى تقليل الكلمات المفردة في كل من الشكل والعمق والرنين، بينما يزداد تبسيط علم قواعد اللغة وعلم تركيب الكلام وتكوين الجمل.

حقًّا، ولو إن الزمن يميل إلى أن يجرد اللغة من صفتها، على الرغم من ذلك سيظل للغة من ناحية الكمية، مجموع المفردات اللغوية التي تحتاجها شعوبها. على سبيل المثال، ارتفاع ضخم في كمية الأشياء المادية سيتطلب ارتفاعًا مقابلًا في عدد الأسماء. لكن في اللغات الحديثة، بينما يجب صياغة الكلمات الجديدة بطريقة مصطنعة ويتم إضافتها من خارج اللغة، فإنه من الممكن أن يقال إن أكثر اللغات المعروفة قِدَمًا تمتلك، بالإضافة إلى الكلمات المستخدمة فعليًّا، آلاف الكلمات غير المستخدمة، والتي في حالة احتياجها، يمكن إنتاجها عضويًّا إذا جاز

التعبير، بفضيلة من سعة تكاد أن تكون غير محدودة لصياغة الكلمات، وهي متأصلة في تركيب اللغة. في هذا الصدد، إنها اللغات الحديثة هي التي يمكن أن تُسمَّى «ميّتة» أو «مُحتَضِرَة»؛ بالمقارنة مع اللغات الأكثر قِدَمًا، حتى إذا كانت «ميّتةً» بمعنى أنها لم تعُد تستخدم، تظل في نفسها مثل الكائنات الحيّة القوية.

هذا لا يعني أن اللغات القديمة -والذين كانوا يتحدثون بها- تنقصهم فضيلة البساطة. البساطة الحقيقية، على عكس كوّنها متضاربةً مع المُرَكَّب، تتطلب أن تكون مُرَكَّبَةً بطريقة معيّنة، لتتحقق تحقيقًا كاملًا. يجب عمل تمييز بين المُرَكَّب، الذي يقتضي ضمنًا نظامًا أو ترتيبًا واضحًا ومحدَّدًا، وبين التعقيد الذي يعني ضمنًا فوضى وارتباكًا. يجب عمل تمييز مقابل بين البساطة والتبسيط.

الرجل البسيط الحقيقي هو وحدة قوية: فهو كامل وصادق ومخلص كل الإخلاص، وغير منقسم على نفسه. للمحافظة على هذا التكامل المترابط، يجب على النفس أن تعيد ضبط نفسها تمامًا مع كل مجموعة من الظروف، الذي يعني ضرورةً وجود ليونة في مختلف العناصر النفسية: يجب تجهيز كل منها ليلائم كل الآخرين (أي العناصر النفسية) تمامًا، مهما كانت الحالة النفسية. هذا الجمع (بين عناصر مختلفة) المغزول غزلًا دقيقًا، الذي تأسست عليه فضيلة الوضوح، هو مُرَكَّب مميز عن التعقيد؛ وله نظيره في كون اللغات القديمة مُرَكَّبةً، وينطبق عليها عامةً لفظ «تجميعية» لتمييزها عن اللغات «التحليلية» الحديثة. الأجزاء المختلفة من الحديث، المتماثلة مع العناصر المختلفة من النفس، يمكن توجيهها

فقط عن طريق نظام موسع من قواعد علم الصرف والنحو لتتلاءم بإحكام، مُعطيةً كل جملة بعض من الوحدة المركزة في الكلمة الواحدة. إن بساطة اللغات التجميعية يمكن مقارنتها في الواقع بعمل فني عظيم – ليس بالضرورة بساطةً في الوسائل لكن في التأثير الإجمالي؛ وبلا شك كان ذلك، بأعلى درجة تمامًا، هو بساطة اللغة الأوّليّة، ويمكننا إضافة وبساطة الرجال الذين تحدثوا بها. على أي حال هذه هي النتيجة التي تشير إليها كل نقاط الإثبات اللغوية، واللغة لها تلك الأهمية الجوهرية في حياة الإنسان، كونها مرتبطةً ارتباطًا حميميًّا بالنفس الإنسانية وهو التعبير المباشر، كون شهادتها لها أعلى دلالة سيكولوچية.

اللغة العربية هي أحد الموروثات من الماضي البعيد، والتي دخلت إلى الحاضر باكتمال استثنائي، وهي إذَنْ مؤهلة جيدًا لتخدم «كمعيار». كان قدرها غريبًا. أوّل ما ظهر العرب في التاريخ، ظهروا كعرق من الشعراء، لديهم مجال واسع من أشكال موازين ونظم الشِّعر، وكاد أن يكون النثر الوحيد الذي يستخدمونه هو ما يستخدم في حديثهم اليومي. كانوا يمتلكون نوعًا من نص بدائي مكتوب، والذي كان قليل منهم فقط يستطيعون أن يستخدموه، ولكن في أي حال فضلوا أن يوَرِّثوا أشعارهم باستخدام المشافهة، وحتى دخول الإسلام كانوا غالبًا أكثر الشعوب السامية أميّةً. ذلك يشرح دون شك، جزئيًّا على الأقل، سبب الحفاظ الجيّد على اللغة على نحو استثنائي: على الرغم من إن الدلائل اللغوية تظهرها على أنها فسدت عن لغة أكثر قِدَمًا، أي لغة أكثر تركيبًا وأكثر رنينًا، اللغة العربية كنت لا تزال في عام ٦٠٠ بعد الميلاد أكثر قِدَمًا في

الشكل، إذَنْ أقرب إلى «لغة شيم Shem» عن اللغة العبرية التي تحدثها موسى النبيّ قبلها بألفيّ عام تقريبًا. كان الإسلام، أو على الأخص الاحتياج لتسجيل كل مقطع من كل كلمة للقرآن بدقة مطلقة، هو ما فرض تعلُّم القراءة والكتابة على عرب القرن السابع؛ ولكن في نفس الوقت فَرَض القرآن لُغَته القديمة كمثال، وبما أنه كان يُحفَظ عن ظهر قلب ويُتلى بأكبر قدر ممكن، فقد أبطل التواجد المتواصل للغة القرآن العربية على لسان الناس التأثير الضار لتعلُّم القراءة والكتابة. سريعًا ما تم تطوير علم خاص لتسجيل وحفظ النطق المتقن لتلاوة القرآن؛ وكان إيقاف انحدار اللغة والحط من قدرها يتم بالجهود المضنية للمسلمين طوال القرون المتوالية لجعل حديث الرسول ﷺ قدوةً لحديثهم. إن لغته حيّة حتى اليوم نتيجةً لذلك. على مر الزمن، ومما لا بد منه، تم تشكيل لهجات منها بواسطة ترك مقاطع من الكلمات، ودمج صوتين مختلفين في صوت واحد، مع تبسيطات أخرى، وهذه اللهجات التي تختلف من دولة عربية لأخرى، تستخدم في الحديث بشكل عادي. ولكن في أقل مناسبة رسمية تتطلب الرجوع فورًا للجلالة الغير منتقصة ورنين اللغة العربية الفصحى، والتي في بعض الأحيان تستخدم تلقائيًّا في الحديث عندما يشعر أي شخص أنه لديه شيء مهم ليقوله. من جهة أخرى، تلك القلة التي ترفض رفضًا باتًّا من حيث المبدأ التحدث باللغة العامية، مُعَرضون أن يجدوا أنفسهم في حيرة: إما أن يمتنعوا تمامًا من المشاركة في «محادثة عادية» وإما أن يُعَرِّضوا أنفسهم لأن يثيروا الدهشة والاستنكار، مثل أولاد الشوارع عندما يتنكرون في رداء ملكي. الثرثرة

التي لا جدوى منها، أي التعبير السريع عن أفكار غير موزونة، لا بد أنها كانت بالمقارنة شيئًا غير معروف في الماضي القديم؛ لأن اللغات القديمة لم تكن تُستعمل في هذه الأشياء؛ وإذا فكر الناس في ذلك الوقت بطريقة أقل استخفافًا، وتكبدوا مشقة تكوين ما يعبر عن أفكارهم، فإنهم بالتأكيد عانوا أكثر في نطقها. ما ينطبق على اللغة العربية ينطبق أيضًا على اللغة السنسكريتية؛ كل منهما بمجموعته الرائعة من أصوات حروفه الساكنة، لا يترك لنا أي خيار إلّا أن نستنتج أنه في الماضي السحيق كانت أعضاء الإنسان المسؤولة عن وضوح مخارج الألفاظ والمسؤولة عن السمع أدق بشكل كبير وأكثر دقةً عما هما عليه اليوم؛ وهو ما تم تأكيده أيضًا بالكامل عن طريق دراسة للموسيقى القديمة، بكل دقة إيقاعاتها المنتظمة وسلسلة أنغامها المتآلفة(١٤).

إذا كان علم اللغة لا يستطيع الوصول إلى أصولها، مع ذلك يمكنه عمل مسح واحد شامل غير منفصل لآلاف السنين من التاريخ اللغوي، والذي يعني أيضًا، في صدد معيّن، آلاف السنين من تاريخ النفس الإنسانية، تاريخ منظور من جانب واحد بلا شك، ولكنه واضح ومحدد بشكل ملفت للانتباه لأبعد مدى. في ضوء هذا المشهد الذي يُرى عن بُعدٍ، والذي يأخذنا بعيدًا إلى الماضي السحيق إلى ما يُسمَّى «ما قبل التاريخ»، فإننا مُرغَمون على أن نلاحظ اتجاهًا مستمرًّا لا يتلاشى؛ وهذا الاتجاه ببساطة هو نفسه وجه واحد من نزعة عامة والتي، كما يعلق عليها

(١٤) انظر على سبيل المثال كتاب: Alain Danielou, *Introduction to the Study of Musical Scales*, Royal India & Pakistan Society, London 1943.

ديوار **Dewar**، قد اتخذها واتفق عليها معظم الفيزيائيين والكيميائيين وعلماء الرياضيات والفلكيين، وهي تحديدًا أن «الكون مثل ساعة في عدٍّ تنازليٍّ». حتى هذا الحد يقف الدين والعلم معًا. لكن يضيف الدين: إن هناك طريقةً لهروب الأفراد من الانجراف مع تيار الانحدار الجمعي – أما العلم لا يمكنه ذلك من دون أن يتعدى مجال وظيفته–، وإنه من الممكن للبعض أن يقاوموه، حتى ممكن للبعض الآخر أن يتقدموا ضده، وممكن لقلة أن يتغلبوا عليه تمامًا باتخاذ طريقهم ليصلوا، في هذه الحياة، إلى المصدر نفسه.

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني

إيقاعات الزمن

كان من السهل على القدماء في كل أنحاء العالم أن يؤمنوا بالتأسيس الفجائي الأوليّ للكمال الإنساني على الأرض -قمة لا يمكن الارتفاع عنها، ولكن يمكن الانحدار عنها فقط-؛ لأنهم رأوا أن هذا التدخل الإلهيّ الأوليّ كان يتكرر باستمرار بتدخلات درجتها تقل عن التدخل الأول. أما فيما يخص أسلافنا، فإن العهد القديم هو قصة اتِّجاه إلى الانحدار، على سبيل المثال، مثل ما بين سقطة الإنسان والطوفان(١٥)، ثم بين الطوفان وبرج بابل، اتجاه يختصر بين الحين والآخر، في بعض الأحيان يحدث ذلك، حتى، عن طريق إعادة تأسيس كمال نسبي؛ وبمجرد أن ترتخي قبضة التدخل الإلهيّ، يعيد الاتجاه المحتوم إثبات وجوده مرةً أخرى، كما لو أنه عن طريق قانون الجاذبية.

---

(١٥) من الممكن أيضًا أن نقول «بين الخليقة وسقطة الإنسان الأول»؛ لأن هذا التردي مُشار إليه قبل حدوثه في الجنة الأرضية نفسها: كان هناك «وقت» عندما لم تكن حواء قد تميّزت عن آدم بعد، «وقت» آخر عندما كانت، برغم أنها كائن منفصل، لم تأكل من الثمرة المُحرَّمة، «وقت» آخر عندما كانت هي قد أكلت منها ولكن آدم لم يكن قد أكل بعد.

إن رؤية كيفيّة سير العالم بالنسبة لنا يجب أن يكون، أسهل عما كانت بالنسبة لأجدادنا؛ لأننا لنا رؤية للتاريخ أوسع عن رؤيتهم. والتاريخ في مُجمَله وبأوجهه الأساسية، يحكي نفس قصة العهد القديم ويؤكد إيقاعاتها. الأحداث الرئيسة في الثلاثة آلاف عام الأخيرة، كانت رسائل بوذا[١٦] والمسيح ومحمد ﷺ كلها تدخلات فجائية: لم يتبَعوا صحوة الأحداث التي سبقتهم؛ كانوا معارضين للاتجاه العام للأحداث. في كل حالة، كانت هناك نواة صغيرة من الإنسانية تُنْتَشَل لأعلى وتوضع على قمة روحانية لتعمل كقدوة وكضوء إرشادي للأجيال المستقبلية. نظرًا لتلك الأحداث التاريخية المعروفة، لن يكون من الصعب أن نؤمن بأن العالم كان يجب أن يتسلَّم روحانياته الأولى أيضًا –وفي هذه الحالة الخاصة إنسانيته الأولى أيضًا– كشيء طبيعته من طبيعة صاعقة هادئة.

هذا الايقاع «للإله – الإنسان»، وهو ارتفاع مفاجئ يتبعه سقوط تدريجي، نتيجة جَمْع بين ما هو يعلو الزمن مع ما يتأثر بالزمن، يمكن وصفه بمصطلحات موسمية كربيع مفاجئ يتسابق نحو الصيف ويتبعه خريف تدريجي. موعد ابتداء الخريف سيعتمد على عوامل مختلفة. تبعًا لبعض تفسيرات نصوص الپوراناس الهندوسية **Hindu Puranas** فإنه يقال إن ربيع– وصيف الجنس البشري كله، العصر الذهبي، قد دام لمدة خمسة وعشرين ألف عام من الأعوام البشرية، وتبعًا لآخرين لمدة أطول

(١٦) سنعود في وقت لاحق لمسألة الفروق بين كل منظور ديني والآخر. لنقِر الآن على أنه بالرغم من عدم إمكانية وجود دين حقيقي من دون الكلمة الإلهيّة، فإنه لا يمكننا أن نفترض الحد من فاعلية الكلمة في الزمان أو المكان. علاوةً على ذلك، فقد أُعطِيَ لنا محك للحكم على الأماكن التي تم فيها، أو لم يتم فيها، زرع بذور الحقيقة الدينية لأنه «من ثمارهم تعرفونهم».

بكثير عن مليون ونصف عام. فيما يخص الدورات الأصغر (زمنًا)، مثل دورات الديانات المختلفة، فإنها حتميًّا تتأثر بموضعها في الدورة العظمى. إن ربيع –وصيف أحد الأديان المتأخرة وموضعها كما هو في خريف الدورة العظمى، مُقَيّد بأن يُجذَب بسرعة نحو الخريف الخاص به[١٧]، والذي يوجد بداخله الربيع– والصيف لكن لدورات أصغر؛ لأنه في بعض الأحيان يكون لقديس عظيم مهمة تقويم مفاجئة، والتي تجعل ظهوره متماثلًا، على مقياس أصغر، لظهور مؤسس الدين. لرؤية هذا الإيقاع، يجب أن ننظر إلى عماد التاريخ بدلًا من سطحيته؛ لأنه على الرغم من أن الروحانية نفسها هي بالتعريف تعلو الزمن، أما التأثيرات غير المباشرة لها في الزمن، فإنها بالطبع تميل إلى أن يتبع الإيقاع الزمني في الازدياد والنقصان. لقد استغرقت البوذية والمسيحية والإسلام بعض الوقت للانتشار للمدى الأقصى لهم في تلك الأمم الإنسانية التي كان يبدو أن العناية الإلهيّة تقصدهم: في هذا الصدد، من المؤكد أن حضارات الحكومات الدينية بكل علومها وفنونها وحِرَفها تطوَّرت بطريقة تدريجية أبطأ من الروحانية نفسها، برغم أن إيقاع «الإله– الإنسان» مترصّد، إذا جاز التعبير، مستعد أن يعلو على السطح فورًا عند طلبه؛ لأنه كلما زاد إلهام الإنسان، بالمعنى الحقيقي للكلمة، كلما زاد هروب أنشطته من الإيقاع الأدنى، وكلما زاد تطابقها مع الإيقاع الأعلى.

(١٧) على سبيل المثال، فيما يخص إنجلترا، فإن ربيع – صيف المسيحية بدأ في نهاية القرن السادس الميلادي، وربما لن نكون مخطئين إذا قلنا –على الرغم من أنه من الواضح أنه لا يمكن لأحد أن يصمم على هذه النقطة– إن الخريف قد بدأ فعلًا في زمن الاستعمار النورماني (نسبة إلى إقليم نورماندي بفرنسا).

على سبيل المثال، الفن في أعلى أوجهه، مُقَيَّد بالروحانية بقيد لا فكاك منه، رغم أن الإلهام الفني لا يأتي أبدًا في بداية (ظهور) الدين؛ لأنه عامةً عندما تكون الروحانية في ذروتها، يكون الإنسان أقل احتياجًا للفن عنه في أي وقت آخر. في العالم المسيحي، الطراز اليوناني- الروماني استمر في بعض المجالات بعد انحطاطه ثقافيًّا بثلاثة أو أربعة قرون، قبل استبداله بأسلوب مسيحي حقيقي؛ لكن في أحيان كثيرة كان الاستبدال نوعًا ما فجائيًّا.

لأخذ أعلى مثال للفن، لم يكن لليهود هندسة معمارية مقدسة حتى بنى سليمان المعبد تبعًا للتصميمات التي أُوحي بها لداوود. كان تحقيق هذه القمة المعمارية فجائيًّا جدًّا لدرجة أنه تم استقدام البنائين من الخارج. على الرغم من أن هذا المثال استثنائي، لكونه شيئًا زائدًا حتى عن الإلهام، وهو تحديدًا وحيّ مباشر، ومع ذلك يتحرك الإلهام بطريقة مشابهة. أقدم فن وصل إلينا هو مثال مدْهش- مدْهش بما يكفي لأن يقحم نفسه حتى على من يتعارض مع أفكارهم تمامًا، ومن هم «حائرون» فيما هو في الواقع قد يكون محيِّرًا، إذا كان خلاف ذلك.

«مما لا شك فيه، أن أقصى وُجْهة محيِّرة لظاهرة الفن عند ظهوره لأول مرة، هي الدرجة العالية من النضوج الموضحة في التعبيرات المبكرة. الظهور المفاجئ لأعمال فنية ذات أسلوب فني مُتَطَوِّر، تفاجئنا تمامًا بانفجار رائع للقيّم الجمالية .... حتى الأمثلة التي تنتمي دون شك إلى المرحلة المبكرة ... هي أعمال ذات نضوج فني مذهل»(١٨).

---

(١٨) Paolo Graziosi, *Palaeolithic Art*, pp. 23 – 24 (Faber & Faber, 1960).

أشياء كثيرة لا يمكن شرحها إلّا إذا أدركنا وجود «تيارين» أو «إيقاعين» يعملان في التاريخ بدلًا من واحد فقط. ودون أي شك، إن أجدادنا كانوا يدركون وجود الاثنين؛ لأن كل شخص يعلم عن التيار السطحي للازدياد والتناقص، أما فيما يخص هذا الاتجاه المفاجئ إلى «أعلى» و«الانحدار» التدريجي (لأسفل)، الحتميين لكل ما هو مميّز نوعيًّا في حضارة، ألَمْ ينظر المسيحيين دائمًا إلى الآباء الأوَّلين بقداسة[١٩] خاصةً، وأولًا وقبل كل شيء، فوق هؤلاء، إلى الرسل أنفسهم؟

بالمثل في الإسلام، أي شيء مكن أن يكون قد تم تحقيقه في مجالات أقل عن طريق أجيال لاحقة، -وأقل ما يقال- لم يجد المسلمون أي صعوبة في قبول حديث الرسول بكل إخلاص:

«خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ».

لنأخذ مثالًا آخر: «تبعًا للبوذيين، يوجد ثلاث فترات تقل كثيرًا قدرتنا خلالها على فهم البوذية. يتم عدُّ هذه الفترات من وفاة بوذا: الفترة الأولى التي تستغرق ألف عام تُسَمَّى 'فترة البوذية الحقيقية'. الفترة الثانية، والتي تستغرق أيضًا ألف عام تُسَمَّى «فترة تقليد البوذية». الفترة الثالثة، والتي نعيشها الآن، نحن رجال 'الأيام الأخيرة'، هي فترة الانحدار»[٢٠].

---

(١٩) تحدث القديس بنيدكت مقدمًا بصوت كل العصور الوسطى عندما قال: «مؤتمرات الآباء ومؤسساتهم وحياتهم ... ماذا تكون غير مخازن لفضائل الحياة-الطيّبة والرهبان المطيعين؟ لكن بالنسبة لنا نحن الكسالى وذوي الحياة العاثرة والمهملين، ينتمي الخجل والخلط بين الأمور» (The Rule of Saint Benedict, S.P.C. K., p. 106.)

(٢٠) Kanei Okamoto, Jodo bonze, quoted by E. Steinilder-Oberlin. *Les Sectes boudhiques Japonaises*, p. 200, G. Cres & Cie, Paris, 1930.

المتابعون لهذه الأديان الثلاثة ليسوا خارقين للعادة في وجهة نظرهم. في الواقع، سيكون حقيقيًّا أن نقول عن كل الحضارات المؤرخة تاريخيًّا، ما عدا الحضارة الحديثة، إنه انتشر بينها وعيٌ عام بعدم الكمال، وتقصير شديد عما هو مثالي؛ وذلك المثالي، الذي احتُفِظَ به نشيطًا في مَلَكَة فهم الإنسان عن طريق سلسلة من القديسين خلال القرون، كل كان لديه أعظم إثمار غزير بين أول ممثلين لكل من هذه الأديان. خلف هذه القمة، وأقصى تسطيح للانحطاط المتداخل - لأنه في أغلب الوقت، ما كان معروفًا عن الحضارات السابقة كان غالبًا لا يزيد عن انحطاط الجزء الأخير - بدا فجأةً قمة كمال الإنسان الأوَّليّ.

تبعًا للتقليد اليهودي، إذا لم يكن آدم في البدء يمتلك «معرفة الخير والشر»، فإنه تعدى حتى الملائكة في معرفته عن الله؛ وعلى الرغم من أن الأسلوب يصبح مختلفًا تمامًا إذا انتقلنا إلى الشرق الأقصى، فإن الحق الذي يُعَبَر عنه يظل كما هو. منذ أكثر من ألفي عام مضت، قال الحكيم شوانج تزو **Chuang Tzu** الذي يتبع مذهب الطاوية **Taoist** في الصين:

«المعرفة عند القدماء كانت كاملةً {لا يشوبها شائب}. كيف كانت كاملةً؟ في البدء لم يكونوا يعرفون بعد بوجود أشياء (ما عدا طاو **Tao**، والطريق الذي يدلّ على ما هو أبدي وما هو أزلي). تلك هي المعرفة الأكثر كمالًا؛ لا يمكن إضافة أي شيء لها. بعد ذلك، عرفوا بوجود أشياء، ولكنهم لم يميزوا بعد بينها. وبعد ذلك ميّزوا بينها، ولكنهم لم يحكموا عليها بعد. عند الحكم عليها دُمِرَت [معرفة] طاو **Tao**[٢١].

---

(٢١) ترجمة يو-لان-فونج ص. ٥٣. Yu-Lan-Fung's translation, p. 53

مرةً أخرى، أغنية ليتوانية وصلت إلينا من ظلال ما قبل التاريخ بها رسالة مختلفة خارجيًّا، ولكنها مع ذلك نفس الرسالة جوهريًّا. تقول لنا هذه الأغنية كيف «تزوَّج القمر الشمس في أول ربيع»، ثم كيف وقع القمر «الشارد وحيدًا» في حب نجمة الصباح عندما وقع نظره عليها، مِن ثَمَّ قطع الإله، والد الشمس، القمر إلى نصفين.

عالميًّا، الشمس هي رمز الروح، ونورها يرمز إلى المعرفة المباشرة للحقائق الروحانية، بينما يمثل القمر كل ما هو إنساني وعلى الأخص الذهن، لكون المعرفة الذهنية، غير مباشرة ومنعكسة مثل ضوء القمر. تصدر «التمييزات» و«الأحكام» من خلال الذهن.

«زواج القمر من الشمس» هو الإنسان الأولي بطبيعته الإنسانية وطبيعته الإلهيّة؛ ومثلما يعكس القمر الشمس، تعكس النفس الإنسانية، بكل ملكاتها وفضائلها الصفات الإلهيّة. لذلك، فإن القمر كرمز لطبيعة الإنسان يعبر عن المذهب العالمي بأن الإنسان «مخلوق على صورة الله»، وأنه «ممثل الله على الأرض».

الخلق معناه الانفصال عن الله. لقد أدارت عملية الخلق اتجاهًا انفصاليًّا للخارج، تخضع له كل المخلوقات. ولكن في (حالة) المخلوقات غير الإنسانية، أُوقِفَ هذا الاتجاه بِانعدام الحرية. كونهم مجرد انعكاسات بعيدة وجزئية للخالق، فإنهم يعكسون مشيئته الحرة في حدود ضيقة للغاية؛ وإذا كان لديهم حرية أقل للخير من حرية الإنسان، فإن لديهم أيضًا حرية أقل للانحدار. بالنسبة للإنسان، الدافع للاتجاه للخارج المولود من الخلق كان موزونًا بصورة مثالية في «أول ربيع» عن

طريق المغناطيس الداخلي لطبيعته الأعلى.

نقطة التقاء الطبيعتان، قمة النفس التي هي أيضًا مركزها -لأن ملكوت السماوات «في الداخل» كما هي في «الأعلى» - هي ما تسميها معظم الأديان بـ «القلب» (تم تسطيرها هنا وفي أنحاء الكتاب لتفريقها عن مركز الجسم)؛ والقلب هو عرش العقل **Intellect** بالمعنى الذي استخدمت به كلمة *Intellectus* في خلال العصور الوسطى، أي المَلَكَة «الشمسية» التي تدرك الحقائق الروحانية مباشرة، بخلاف المَلَكَات «القمرية» للفكر الاستنباطي والذاكرة والمُخَيِّلة، التي هي الانعكاسات المُفَرّقَة للعقل.

بفضل «زواج القمر والشمس»، قام الاتجاه للداخل واتحادية القلب- والمعرفة التي تحيل كل المخلوقات إلى خالقها برئاسة والسيطرة على «معرفة الخير والشر» الانعزالية والتي تتخذ اتجاهًا للخارج. «قطع القمر إلى نصفين» يدل على انفصال القلب والعقل، العقل والفكر الاستنباطي، وبالتالي خسارة الإنسان للمعرفة المباشرة الاتحادية وخضوعه لثنائية المعرفة غير المباشرة، معرفة الخير والشر.

كان الاستقلال الذهني، الذي يمثله «القمر الشارد وحيدًا»، هو ما أتى معه بإمكانية أفعال ونزوات دنيوية. لم يكن هناك أي شيء روحاني في هجر القمر للنور الأعظم (لصالح) ما هو أقل، تمامًا مثل عدم وجود أي شيء روحاني في الدافع الذي جعل باندورا **Pandora** تفتح علبتها، أو في السبب في أكل الفاكهة المُحَرَّمة؛ ويمكن فهم معنى هذا الفعل الأخير أكثر في ضوء الديانة الزرادشتية، التي تبعًا لها فإنَّ مرحلةً واحدةً

من فساد الإنسان يشار إليها بالاستمتاع بالأكل من أجل الأكل، والفشل في نسب حُسْنه للخالق.

الحال في (جنة) عدن كان، من وجهة نظر خاصة، أعلى من الزمن؛ لأنه لم يكن هناك مواسم ولا يوجد موت. بل لم يكن هناك أي دين؛ لأن الهدف الذي يستخدم الدين في الوصول إليه لم يكن قد فُقِدَ بعد، بينما العصر الذهبي، الذي يبدأ فورًا بعد السقطة، هو بالتعريف عصر الدين والذي سُمِيَ باللغة السنسكريتية كريتا يوجا **Krita Yoga**؛ لأن كل الناس «أدوا بصورة مثالية» واجباتهم الدينية. تبعًا للهندوسية، الحياة الدنيوية كانت تدوم لمدة ألف عام، وهذا ما يبدو أن أكدته اليهودية. إلّا أن اليهودية وديانات أخرى لاحقة لا تتوقف عند امتياز هذا العصر؛ لأنه مهما كان حسنًا في حد ذاته، فإنه مع ذلك احتوى على بذور الدمار، وإذا جاز التعبير، قد أحط العصر الحديدي، الثمرة النهائية لتلك البذور، من شأنه.

بالنسبة إلى الديانات الأوَّليّة، العصر الذهبي عَبَّر عن المثل الأعلى لما هو مستطاع في الحالات الأرضية بعد السقطة. لكن كلما اقتربت الدورة من نهايتها، كلما أصبح هذا المثل الأعلى بعيد المنال. مع ذلك، إذا نظرنا إلى الإصحاحات الأولى من سفر التكوين، والتي تحتوي على رموز لأقصى حد، نجد أن وجود العصر الذهبي ليس ظاهرًا، لكن موجود بطريقة ضمنية لا يمكن إنكارها، مُشَخّصًا في آدم بعد السقوط؛ وعندما ننظر إلى تفسيرات سفر التكوين وإلى الكتب الدينية اليهودية المشكوك فيها نجد أن آدم قد عُظِّمَ ليس لمجرد أنه وحيدٌ بين الناس، ولكنْ في كونه

قد ارتكب خطيئة واحدةً فقط، لكن أيضًا لأنه كان له رؤية عظيمة: إنه النبيّ الذي استهل الدين على الأرض؛ وعند وفاته نَزَلَ رؤساء الملائكة من الجنة لدفنه. بالإضافة إلى ذلك، فإننا نقرأ أنه في زمن آدم وشيس لم تتعفن أجساد الموتى، وكان الناس ما زالوا يولدون على «صورة الله»(٢٢)، بينما بعد شيس لم تعد هذه هي الحالة، والجبال التي كانت حتى ذلك الحين مُثمِرةً، أصبحت صخورًا عقيمةً.

* * *

تبعًا للهندوس، فإنه يتم، في خلال دورة الأربعة عصور، مقاطعة اتجاه الانحدار بثمانية تقويمات فجائية، كل منها أوجِدَت بتجسد لوُجْهَة من أوجُه الأُلُوهيّة على الأرض. تستهل الدورة وتغلق أيضًا بمتجسدات مشابهة، أو كما تسمى «حلول» (Avataras)، الذي يرفع العدد ليصل إلى عشرة. التجسد التاسع كان بوذا، الذي يُسمَّى Mleccha Avatara (النزول الأجنبي)؛ لأنه بالرغم من ظهوره كهندوسي، المجال المُقَدَّر لمأموريته يقع خارج حدود الديانة الهندوسية. لا يمكن أن يفشل المنظور

---

(٢٢) انظر كتاب مدراش راباه عن سفر التكوين ٤ :٢٦ *Midrash Rabbah* on Genesis iv, 26 (Soncino Press, London, 1939, Vol. I, p. 196).

تبعًا لأحد المعاني – لأن النص المقدس دائمًا ما أُخِذَ على أنه تجميع لمعانٍ مختلفة على مستويات مختلفة –؛ فإن قصة آدم. وقايين وهابيل تشتمل على تاريخ الإنسانية الكامل: اليوم قد اكتمل تقريبًا إثم قايين، والرحّالة قد اختفوا تمامًا عن الوجود عن طريق ساكني–المدن (انظر كتاب ريني جينون *The Reign of Quantity and the Signs of the Times*, Ch. 21, Luzac & Co., London, 1953).

من تلك وجهة النظر، يمكن أن يقال إن قصةً رمزيةً جديدةً تبدأ بقصة آدم–شيس. لكن من وجهة نظر أخرى، إذا كان قايين، إذا جاز التعبير، يُجْمَل السقطة ويشخص كل « الحكمة الدنيوية» التي نتجت عنها، وإذا كان هابيل يمثل خسارة (جنة) عدن، ويشخص توبة آدم وتكفيره، فشيس يمثل رقة قلب الله نحو آدم وتأسيس العصر الذهبي.

البراهماني **Brahmanic** في أن يتضمن هذا التدخل الإلهيّ، مع أن كونه بالطبيعة، نوعًا ما، محددًا فيما يخص الهندوسية، فإنه لا يأخذ في الاعتبار ديانات الغرب؛ ولكن التجسد {أو الحلول} العاشر الذي لم يحدث بعد، هو العالم بأكمله.

كالكي **Kalki**، هو اسم الاڤاتارا العاشر والأخير، يُمَثَّل كراكب على حصان أبيض وفي يده سيف، وبعض أوصافه تحمل تشابهًا كبيرًا لآيات في سفر الرؤية. يُتَوَقَّع من الاڤاتارا الكالكي أن يضع نهايةً للعصر المُظلِم، وأن يفتتح دورة جديدة بعصر ذهبي.

هذا التَوَقُّع الذي تشارك فيه كل الأديان، مهما كان الاسم الذي يطلقوه على كالكى **Kalki**، لا يوجد فيه أي شيء مشترك مع الاعتقاد الحديث بـ « التقدم». حقًّا إن بعض معاصرينا يفضلون أن يعتقدوا بأن التقدم الإنساني هو الاحتمال الذي استحق القدوم الأول للمسيح، وأن التقدم المستمر سيجعل الأرض في النهاية مناسبةً لقدومه الثاني. لكن تلك الأفكار في مجملها غريبة على مفاهيم العصور الوسطى والقديمة. بعيدًا عن التمسك بأن الجنس البشري قد استحق الفداء، فإن أسلافنا قد آمنوا بأنه نعمة خالصة؛ أما فيما يخص القدوم الثاني للمسيح، فإنهم آمنوا بأن علامات حدوثه الوشيكة لن تكون لأفضال عالم على وشك الكمال، منتظرًا اللمسة النهائية المتقنة، ولكنها ستكون «حروبًا»، و«إشاعات حروب»، و«زلازل»، و«مجاعات»، والفُرْقَة المدنية وخلافات «الأخ مع أخيه»، و«الأب مع ابنه»، و«الأبناء مع أهاليهم»، وأخيرًا «استهجان الدمار الكامل». تبعًا لأقوال المسيح والأنبياء، والتي تم تأكيدها بالكامل

لأجدادنا بإيقاع التاريخ، الألفية لم تكن شيئًا سنُصَعَّد اليه، ولكن سَنُهَبَّط إليه، على الأقل فيما يخص الجمع الإنساني بأكمله. كان الإيمان بأن الانحدار التدريجي، مُقَاطَعًا بتقويمات[٢٣] معيّنة، يمكن أن يقود إلى «لأنه يكون حينئذ ضيقًا عظيمًا لم يكن مثله منذ ابتداء العالم إلى الآن، ولن يكون»[٢٤]، ويمكن لنا أن نقارن وصف المسيح للعلامات التي تشير إلى اقتراب قدومه الثاني مع ما تُعَلِمه الديانات الأخرى عن نفس الحدث. أقل تدهور للإنسانية سيشار إليه بحكم المسيح الدجال. ثم يظهر المسيح الحقيقي؛ «لأنه كما أن البرق يخرج من المشارق ويظهر إلى المغارب، هكذا يكون أيضًا مجيء ابن الإنسان»[٢٥].

*** * ***

لقد تمت الإجابة الجزئية على السؤال الذي قد سُئلَ مسبقًا، عمّا إذا كانت معرفة الاكتشافات الجديدة ستغيّر اعتقادات القدماء في عظمة

---

(٢٣) هل يوجد في الاعتقاد القديم أي شيء يمكن أن نستنتج منه أرجحية أو حتى احتمالية حدوث تقويم بين الآن ونهاية الدورة؟ يمكن أن تقع الإجابة الجزئية لهذا السؤال في واقع قول المسيح عند حديثه عن العلاقات التي ستسبق قدومه الثاني «ولو لم تقصر تلك الأيام لم يخلص جسد. ولكن لأجل المختارين تقصر تلك الأيام» (متى ٢٤: ٢٢)، ومن الواضح أنه لم يكن يشير إلى نهاية «السماء الأولى والأرض الأولى» لتحضير «لسماء جديدة وأرض جديدة»، ولكن إلى خراب جزئي مبدئي. «الأيام» المشار إليها ستبدو أنها تكون إلّا ما يسميها الهنود الحمر، وعلى الأخص الـهوپيز Hopis، يوم التطهير والذي يعتبرونه قاب قوسين أو أدنى. إنهم يتوقعون أن يكون للدمار وُجْهَةً موجبةً أيضًا، كما توحي بذلك كلمة «تطهير». أيضًا تطلّع الإسلام إلى تجدد روحاني قصير العمر مع قدوم المهدي المنتظر، في السنوات التي تسبق قدوم المسيح الدجال مباشرةً؛ ويدلّ تقصير أيام الدمار في نبوءة المسيح على أنها سيعقبها نوع من التقويم الروحاني، حتى إذا كان تقويمًا عابرًا وجزئيًّا فقط.

(٢٤) متى ٢٤: ٢١.

(٢٥) نفس المصدر الآية ٢٧.

أسلافهم. ولكن ماذا عن توقعاتهم للمستقبل؟ إذا استطاعت الأجيال السابقة، التي توفت منذ زمن طويل، أن تعود إلى الأرض، هل كانوا سيشعرون هم وأنبياؤهم أنهم أخطئوا؟ أو هل كان مشهد من العالم الحديث سيؤكد أقصى توجس متشائم لهم نحو مستقبل البشرية؟ هذا السؤال أيضًا قد تم الرد عليه ضمنيًّا؛ الفصول القادمة ستكون أكثر وضوحًا.

* * *

الفصل الثالث

الحاضر في ضوء الماضي

قديمًا، قبل زماننا بأمد طويل، كان هناك لحظات منعزلة لمحاولات لاختراع وسيلة لرفع الجسد في الهواء، تقليدًا لطيران الطيور، ولكن فقط في وقتنا الحاضر، على حسب علمنا، حدث النجاح الحقيقي في هذا الموضوع، وكذلك فقط في وقتنا الحاضر قد نما اهتمام عام بمثل هذه المغامرات. الحماس الهائل والواسع الانتشار «للتحكم في الفضاء» و«الرحلات إلى القمر» الغائية، لا يمكن تفرقتها عن تسلق جبل إﭬرست وإنجازات أخرى في التسلق. لا شك أن أحد دوافع كل هذه الأنشطة هو فضول لا جدوى منه، ميراث پاندورا **Pandora**. ولكنه غريب على الرغم مما يبدو، إنه بالإضافة إلى هذا التوجُّه الخارجي والنزعة التفكيكية التي يمكن أن يقال إنها السبب في السقطة، ألا يوجد هناك أيضًا دافع الوعي الباطن الذي يعمل لاستعادة ما فقد بالسقطة؟

السمة المميزة للإنسان الأولي أنه كانت له طبيعة فائقة لطبيعة البشر بالإضافة إلى طبيعة بشرية؛ ولا يزال الإنسان يحفظ فعليًّا في أعماق

وجوده الاحتياج ليتسامى على إنسانيته، ويتحرك ضد التيار «نحو المنبع»، ويعيد تأسيس العلاقة بين النفس الإنسانية و**القلب** {ذي الطبيعة الإلهيّة. بشكل عمومي، في عصر فيه إحباط كامل لهذا الاحتياج على مستوى النفس حيث له معنى، الرغبة المُلِحة والتي لا تقتلع لتعدي محيط الإنسانية العادية مُجْبَرَة على أن تُظهِر نفسها على مستوى أقل. ومن هنا يمكن أن يسمى بخرافة «ما هو أعلى وما وراءه»؛ لأن الخرافة هي شيء «مُرْجأ» من الماضي ويستمر في السيادة دون أن يُفْهَم.

في كل الأديان هناك مذهب الثلاثة عوالم، وهي عوالم الروح والنفس والجسد. النفس والجسد، أي النفسي والجسدي، يكونان معًا ما يُسمَّى عامةً «هذا العالم». عالم الروح، **والقلب** هو بوابته، متعالٍ كليًّا على هذا العالم لكونه خارج نطاق أي مَلَكَة إنسانية. كما رأينا، إن ما أطلق عليها أجدادنا **العقل** العلوي هو المَلَكَة التي تتجاوز طاقة البشر، والتي تترأس عرش القلب، وهي وسيلة الارتباط بين النفس والروح.

في الهندوسية، تُمَثَّل مَلَكَة هذه الرؤية المتعالية في التماثيل والأشكال الأخرى للفن المُقَدس عن طريق عين ثالثة موضوعة في منتصف الجبين. في المسيحية والإسلام، تُسمَّى «**بعين القلب**» وفي اللغة العربية، وهي اللغة المقدسة للدين الإسلامي، تعني أيضًا «**نبع القلب**»، ونفس هذا النبع هو الذي تشرب منه النفس «إكسير الحياة والخلود». وأيضًا، يتم جمع الرمزان في المسيحية، حيث يوجد تقليد ينص على أنه عند سقوط لوسيفر (الشيطان أو إبليس) من الجنة، سقطت عينه الموضوعة في الجبهة على الأرض على شكل زُمُرّدة، وهي التي تم

نحتها في الكأس المقدسة.

التفكير، الذي يحتوي على الفكر السندي الاستنباطي، والخيال، والذاكرة، هو في حد ذاته مَلَكَة إنسانية بحتة، ولكن من خلال الاستمرارية الفعلية الموجودة بين النفس والروح، يمكن اختراق الفكر بقدر معيّن عن طريق نور العقل العلوي. الغرض من الميتافيزيقا، دراسة «ما وراء الطبيعة» أي، ما وراء هذا العالم، هو فتح الذهن {العقل السفلي} لهذا الاختراق لإعطاء الأفكار نزعةً علويةً. على وجه التحديد، هذا هو أقصى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان، على حالته، من سموّ، ما بعد ذلك ينتهي ما هو بشري ويبدأ ما يتجاوز الطاقة البشرية **superhuman**. رغم ذلك، الصفة الجوهرية للإنسان هي اتصاله بما يتجاوز البشر **superhuman**، وهذا التناقض يُعَبَّر عنه في لفظ الطاوية **Taoist**، (الإنسان الحقيقي) **Chenn-jen** والذي ينطبق فقط على إنسان استعادت نفسه اتصالها بالروح.

تزايدت في الأربعمائة عام الأخيرة هيمنة الإنسانية **humanism** على الفكر الغربي، وهي لا ترتكز على مفهوم «الإنسان الحقيقي» ولكن على «الإنسان كما نعرفه»، أي على أنه أعلى أعضاء المملكة الحيوانية. المثير للسخرية أنه بفشلها في الاهتمام بما يتجاوز الطاقة البشرية **Superhuman**، أو طرحها الشكوك في وجوده، تلك الإنسانية **humanism** التي تدعي أنها التمجيد للإنسان، قد سَعَت إلى أن تَحْرِمَ الذهن الإنساني {العقل السفلي} من كل احتمالاته العلوية الحقيقية بقصرِه، إذا جاز التعبير، على مبنى منخفض السطح، حيث بالكاد يستطيع

الوقوف منتصبًا، ناهيك عن الطيران.

صراحةً، الفلسفة الحديثة غير مهتمة بأعلى ما يمكن أن يصل إليه الكون؛ وعامةً ستكون أكثر دقةً إذا تم تخزين تلك الكلمات مثل العقل والميتافيزيقا كآثار من الماضي، مثل مجوهرات التاج الملكي في دولة تحولت من النظام الملكي إلى النظام الجمهوري. ولكن مثل هذا التدقيق في التفاصيل الصغيرة سيكون غير متملق وفاضحًا تمامًا. لن تكون هناك أي بهجة في وصف أحد أبطال العلم أو الأدب الحديث كـ «شخص متعلق جدًّا بالمُخّ»؛ ويحدث أن يمضي رجلٌ جزءًا كبيرًا من حياته في أنشطة غير-عقلانية تمامًا، وفي الحفاظ على عدم وجود أي شيء أعلى من النفس الإنسانية، ومع ذلك يمكن أن يُشار إليه حاليًا كـ «واحد من قادة العقلانيين في هذه الأيام». لم يحدث حقًّا أن تغيَّر معنى الكلمة، حيث إننا ما زلنا قريبين زمنيًّا من صياغة المُعَلِّم إيكهارت {التالية}:

«يوجد شيء غير مخلوق في النفس ... وهو العقل العلوي».

ما زال هناك فرق بين تسمية إنسان «ذكي» وبين تسميته عقلاني {أو فكريّ}؛ لأن هذه الكلمة الأخيرة تحتجز تلميحًا لشيء سامٍ وغامض - ومن ثم قيمتها لأغراض التفاخر. بالمثل، عندما يتحدث دكتاتور الاتحاد السوفيتي عن «الفوائد المادية والروحانية للشيوعية»، فإنه من الأجدى أن يتَفَوَّه بألفاظ متناقضة (لأنه بالتعريف الشيوعي لا يؤمن بالروح) عن أن يخضع للابتذال الشائن عند التعبير عن حقيقة ما يقصده؛ والتابعون {لثقافة} الإنسانية **humanist** في الغرب، كوّنهم ملحدين أو لا-أدريين، ليس لديهم أي نيّة للاستغناء عن كلمة «روحاني» والتي ما زالت تلعب

دورًا مهمًّا في فن الخطابة الخاص بهم. واليوم لا يوجد أي نقص في فنانين أو نقاد للفن، الذين عندما {يجدون} قطعةً فنيةً غامضةً وخاليةً من أي معنى، سيصفونها دون أي تردد بأنها «صوفية». أما إذا كان الواقع هو المطلوب -والواقعية تعتبر أحد المُثل العليا لزماننا -لنُقِر إذَنْ أن صواريخ الفضاء ترتفع من عالم يعاني في الواقع من الحرمان من الحركة المتجهة إلى أعلى، على كل المستويات الأعلى، عالم يسوده نظرة سَحيقة في أوجه كثيرة، وفي أحسن الأحوال مسطحة تمامًا.

من ناحية أخرى، لن يكون هناك سوء استخدام للكلمات إذا قلنا إن وجهة نظر القدماء كانت مُجَنَحةً، بما أن في جميع أنحاء عالمهم، في الغرب كما في الشرق أيضًا، الحياة التأملية كان مُعترفًا بها عامةً كأرقى وأعلى نوع من الحياة يمكن للإنسان أن يعيشها، وسمتها الأساسية هي تثبيت أفكار الإنسان على الروح، طامحًا في الصعود نحوها على أجنحة الحدس العقلاني.

تبعًا للاعتقاد القديم، فإن جسم القمر الكروي لا يزيد عن كونه الرمز، أي ظل سماء القمر المسلّط على عالم الزمان والمكان المادي، أدنى السماوات السبع وأوّل المراحل الروحانية التي يجب على الكائن أن يتعداها خلال رحلته إلى اللا-متناهي والأبدي بعد عبوره إلى ما بعد حدود هذا العالم. أول مقطع رئيس من رائعة دانتي **Paradiso** قد أُعِدَّ في القمر؛ لأنه قد رُفِعَ إلى هذه السماء من الجنة الأرضية بعد صعوده جبل المطهر. فكرة محاولة الطيران في الفضاء للوصول إلى القمر، حُجِزَت لعصرٍ، نادرًا ما فكر فيه أحد أن تكون الرحلة التي وصفها دانتي

قد حدثت بالفعل.

يمكن الاعتراض على كل ذلك بأن رحلة دانتي في الواقع، ما زالت تبقى احتماليةً حقيقيةً كما كانت دائمًا، وأنه يوجد فعليًّا مؤمنون بالروحانية {متصوفون}(٢٦) حقيقيون يعيشون في العالم الحديث، كما أنه حتى في العصور الوسطى كانوا لا يزيدون أبدًا عن أقلية قليلة. فيما يخص هذه النقطة الأخيرة، يمكن أن يقال نفس الشيء عن أوقات وأماكن كانت أحسن بكثير عن أوروبا العصور الوسطى. العصر المظلم، هو اسم آخر من أسماء العصر الحديدي في مجمله، أُطلِقَ عليه هذا المسمى من واقع أقلية المتصوفين، والذين هم نور الأرض، فيه. ومع ذلك، حتى في فترة متأخرة جدًّا من العصر الحديدي وهي فترة مثل فترة دانتي، تلك الأقلية، بعيدًا عن أنه قد تم إقصاؤها، كانت متماشيةً تمامًا مع الأغلبية؛ لأنها كانت تُمَثِّلُ أعلى قدوة للإنسان. كانت أوروبا لا تزال واقعةً تحت تأثير المسيح وبالتالي قصة مريم ومارثا التي وردت في الإنجيل: فتلك الأقلية، كورثة لمريم ومالكي «النصيب الصالح» {لو: ١٠: ٤٢}، وقفت تلك الأقلية، إذا جاز التعبير، على أعلى نقطة الهرم، واضعةً معيارًا يتطلع نحوه أغلبية غير طبيعية معترفةً بجانبها السفلي، ويمكن أن يسري من

(٢٦) كلمة «صوفي» تنطبق جزئيًّا مع «عقلاني»؛ لأن المتصوّف هو مَن يدرك، أو من يطمح إلى إدراك أسرار ملكوت السماوات، والعقل هو المَلَكَة التي من خلالها يحدث هذا الإدراك. إجمالًا، تتجه كلمة «المتصوّف» إلى أن تكون الكلمة الأكثر عمومًا، وكلمة «العقلاني» تشير بالأحرى إلى المسار الباطني للمعرفة عن المسار الباطني للحب، على الرغم من أنه، مرةً أخرى، يستعمل «الحب العقلاني» في بعض الأوقات بمعنى «الحب الصوفي» أو «الحب الروحاني». للحصول على تعريف واضح وعميق، يصل إلى أبعد الحدود لهذين المسارين الباطنيين {الصوفيين}، انظر كتاب فريثچوف شيون *Gnosis*, pp. 45-46 (John Murray, 1959).

هذه النقطة العليا تأثير روحاني متجهًا لأسفل متخللًا طبقات المجتمع المختلفة. ما زال هذا الهرم موجودًا بمفهوم معيّن؛ لأن وجوده من أصل طبيعة الأشياء؛ ولكن «رسميًّا» قد تم تسويته تمامًا بالأرض.

* * *

تبعًا للپورانا الهندوسية **Hindu Puranas**؛ فإن الأمراض الجسمانية كانت غير معروفة حتى وقت متأخر من **Dwapara Yuga**، أي العصر البرونزي، ثالث الأربعة عصور. أما فيما يخص علوم الشفاء القديمة التي تم توارثها من الأزمنة قبل التاريخية بين شعوب مختلفة، وظيفة «طبيب مشعوذ» كانت ببساطة جزءًا من وظيفة القسيس، وفي أي حالة كان العلم نفسه دائمًا مرتبطًا ارتباطًا حميميًّا بالدين. وإلى حد ما، كان لنفس هذا السبب مرتبطًا أيضًا بعلوم أخرى قديمة، كل منها على حدة كان في حد ذاته فرعًا من فروع الدين، كونه مؤسسًا على معرفة حقائق كوزمولوجية معيّنة، والتي كانت تبعًا للتقليد وصلت إلى الإنسان في البداية من خلال الوحي أو في بعض الحالات من خلال الكشف {أو الرؤيا}.

كل هذه الحقائق هي أوجُه لتناغم الكون: إنها التطابقات بين الكون الصغير والكون الكبير والكون الأكبر، أي بين العالم الصغير الخاص بالفرد الإنساني، وبين العالم الخارجي الكبير وبين العالم الذي يليه، والمتعالي على الاثنين. لأخذ مثال في الاعتبار، كل كوكب من الكواكب (أي هذه الكواكب الظاهرة للعين المجردة بالإضافة إلى الشمس، ومجموعهم سبعة) يتوافق مع معدن معيّن، ومع بعض الأحجار، والنباتات والحيوانات، وللون معيّن، ولنغمة على السلّم الموسيقي؛ {مخصص} له

يوم من أيام الأسبوع، وله عدة ساعات من كل يوم؛ ويهيمن على بعض أجزاء الجسم؛ ومطابق لأمراض معيّنة، ولبعض الطباع على المستوى النفسي، وللفضائل والرذائل، ويطابق أحد السماوات السبعة، ولبعض القوى الملائكية، والقديسين، والأنبياء، والأسماء الإلهية ميتافيزيقيًّا.

لا يمكن لعلم واحد أن يقترب من احتضان كل أسرار الكون، وبالتالي يوجد علوم طبية تقليدية كثيرة ومختلفة؛ ولكن عامةً، ممارسة الخبير لأحدهم تفترض مسبقًا بعض الفهم، ليس فقط لعلم وظائف الأعضاء، والبيولوچيا، وعلم النباتات، وعلم المعادن، والكيمياء، والطبيعة (ودراستهم من زاوية مختلفة تمامًا عن زاوية العلم الحديث)، ولكن أيضًا {بعض الفهم} لعلم التنجيم والموسيقى في بعض الأحيان، بالإضافة إلى ما يُسمَّى في بعض الأحيان علم الأعداد والحروف، والذي يجب أن يضاف إليه الميتافيزيقيا واللاهوت، متضمنًا معرفةً علميةً واسعةً للطقوس الدينية، كلها مجمعة مع استعداد طبيعي بارز للشفاء.

مع أنه يتم السماح لمبالغات كثيرة، سيكون من الغباء نُكران {عدم تصديق} كل ما ورثناه عن التقليد في أماكن مختلفة كثيرة من العالم، من طرق علاج عجيبة تسترعي الانتباه فعَّلتها العلوم القديمة. لكن لا يوجد بينها وبين الطب الحديث أي جسور. حقًّا، إن فرعًا من الطب الصيني القديم، المعروف للغرب باسم «الوخز بالإبر» (الإبر الصينية)، والذي ما زال يمارس في جميع أنحاء الصين واليابان، اقتبسه قلة من الأطباء الغربيين بطريقة جزئية حيث تمت استمالتهم إليه لفعاليته التي تسترعي الانتباه. لكنه مشكوك فيه، سوَاء كان من الممكن أن يُقبل عامةً لدى عالم

الطب الحديث؛ ذلك لأنه مؤَسس على علاقات غير بديهية بين أجزاء متسعة من الجسم، علاقات لا يمكن أبدًا لمجرد فحوصات عملية أن تكتشفها، ولا يمكن للعلم الحديث أن يفسِّرها.

بعض من هؤلاء الأطباء الغربيين الذين يمارسون الوخز بالإبر، يحاولون بالفعل أن يجعلوه يتماشى مع الطب الحديث، وذلك بالتأكيد على ضرورة نشوئه من خلال التجارب العملية؛ ولكن هذه فرضية بحتة، بالإضافة إلى الواقع الذي لا يمكن إنكاره. إن وسيلة تعامل القدماء مع العلم، في كل أركان العالم، كانت مختلفةً جذريًّا عن وسيلة التعامل الحديثة معه، هل من المعقول تصوّر أنه كان من الممكن اكتشاف الوخز بالإبر نتيجةً للتجارب؟ على سبيل المثال الشكوى من المعدة يعالج عن طريق عصب في إصبع بالقدم، في حين أن الكبد يمكن معالجته من خلال الكاحل، والكُلى من خلال الركبة، والمصران الغليظ بواسطة الكوع، وهلم جرًّا[٢٧]!

فضلًا عن تدخلات استثنائية قليلة وسطحية كثيرة لمثل هذه العلوم في العلوم الحديثة، والسماح ببعض الاستمرارية بين الماضي والحاضر (ربما، فيما يخص استخدام العقاقير، أكثر من واحد على دراية بذلك)، فإن الطب الحديث هو ما يعلنه عن نفسه، بأنه اختراع إنساني بحت مؤسس على تجارب عملية يقوم بها بنفسه بلا مساعدة.

بلا شك، مازالت رسالة الطبيب لها القدسية التي تنتمي إلى {قدسية} الاستجابة لكل احتياج عاجل؛ ويمكن مناقشة أن ذلك ينطبق

---

(٢٧) لدراسة ممارسة مثل هذا العلم في الغرب، انظر كتاب *Acupuncture, Heinemann, 1962* .

على علمه أيضًا، على الرغم من أن طبعه الحقيقي غير مقدس، ولو أن معظم الاختراعات الحديثة ليس لها «حاجة» لمن يرعاهم، بعض منهم لديه هذه الحاجة، وعلى الأخص الاختراعات الطبية الحديثة. على سبيل المثال، إذا استطاع إنسان أن يأتي من الماضي السحيق إلى الحاضر، فما هو أكثر شيء سيصدمه، أهو مهارة أطباء أسناننا، أَمْ سوء حالتها؟ هكذا يمكن فعلًا أن يقال، إنه حتى في عالم مكتظ بالسكان وممتطى بالأمراض، حيث زيادة الاعتلال في الصحة يتساوى بالتقريب مع نقصان هبات ممارسة عِلم مقدس، إنه يوجد على الأخص احتياج لطب حديث، أي عِلم ليس مُضنيًا أكثر من اللازم فيما يخص المؤهلات، ويمكن تدريسه لعدد كبير من الرجال والنساء، الذين يمكن تدريبهم وتنظيمهم لمواجهة الأزمة.

المشكوك فيه تمامًا هو أن أجدادنا كانوا سيقرون بكل ذلك. في أي حالة، كانوا سيتمسكون بالتأكيد على أن وجهة النظر (ثقافة) الإنسانية التي جعلت تَطَوُّر الطب الحديث ممكنًا، هي نفسها التي أثارت كثيرًا من المرضى الذين يطلبون العلاج الطبي. ولن يكون قد مر عليهم دون أن يسترعى انتباههم، إن هذا المظهر (للثقافة) الإنسانية على الأخص– ونفس الشيء يطبق على علوم حديثة أخرى – مثله مثل (ثقافة) الإنسانية عامة له وجْهَة انتحارية؛ لأنه مثلما أن معنى (ثقافة) الإنسانية هو محو الجنس البشري، أي إقصاء كل الخواص المعيّنة لما يسميه الطاويون Taoists بالإنسان الحقيقي، الطب الحديث يعني، على المدى الطويل، محو الصحة من خلال انحطاط الجنس {النوع} الذي يسببه تطوّر النظام

الذي يسمح للإنسان، ولذلك يجبره من وجهة نظر خاصة، بازدراء قانون الاختيار الطبيعي على مدى هائل، وهو الترياق الطبيعي للانحطاط. قول أننا نعيش في عالم الجميع فيه أنصاف موتى؛ لأن لا أحد يموت هو مبالغة واضحة، لكن ذلك على الأقل هو الاتجاه؛ في النهاية، هذا العلم محكوم عليه بهزيمة غاياته بأن يكون أحد أمثلة العالم الحديث التوضيحية لحقيقة مثال الوزنات {في الإنجيل} الذي تبعًا له «وَمَنْ لَيْسَ لَهُ، فَالَّذِي عِنْدَهُ يُؤْخَذُ مِنْهُ».

لكن إذا كانت العلوم الطبية قد خرجت الآن عن تحكم الإنسان في أكثر من منحنى، فإن الوجه الأكثر شؤمًا بالنسبة للوضع {الحالي} إلى حد بعيد، هو أنها قد اتخذت أهميتها المطلقة الزائفة في الوقت الحاضر، باغتصاب، بمقدار كبير جدًا، مكان شيء يتناول المطلق باقتضاب. العالم الحديث يُكَرِّس مخزنًا للطاقة يفوق الحصر لعلاج الأجساد المريضة، وهو الذي كان يُكَرَّس في الماضي لعلاج النفوس المريضة. كبر الناس ولديهم وعي بأن كل النفوس مريضة، فيما عدا أندر الاستثناءات. غنيّ عن القول أن المقاييس الحديثة تصرح بوجود نفوس كثيرة مريضة، ويحذروننا باستمرار أن عدد كُلٍّ من المجرمين والمجانين في ازدياد. لكن الأغلبية الهائلة من النفوس، أولئك من الملتزمين بالقانون والعقلاء، يُعتبَرون الآن في حالة صحية جيدة، أو على الأصح بحالة جيدة تكفي لئلا يحتاجوا عمليًا للعلاج، ومن المفترض نوعًا ما أن لديهم مناعةً من التدهور. الخليج الذي يفصل بين ما يُسمَّى بـ «الصحة الجيدة» والصحة المثالية قد اختفى عن المسرح، وعامة الأفكار الخاصة عما يمكن أن

تكون الصحة المثالية للنفس هي أفكار غامضة وغير واضحة؛ ولم تكن في مجملها أقل غموضًا في الأجيال قريبة العهد، أجيال آخر قرنين أو ثلاثة، الذين قيدت أخلاقياتهم غير الذكية المتزايدة، والتي كثيرًا ما كانت سطحيةً وميكانيكيةً، لتثير في النهاية، رد فعل لا أخلاقيًا متشككًا.

من جهة أخرى، إذا كان أجدادنا القدماء قد عرفوا جيدًا أن نفوسهم مريضة، وإذا كانوا فهموا جيدًا طبيعة المرض؛ ذلك لأن حضارتهم كانت مبنيةً على فكرة الصحة النفسية، ومفهوم النفس الكاملة يسيطر عليها. ولم ينفردوا بهذا المفهوم؛ لأن كونه مؤسسًا على مبادئ كُلِّيّة {عالمية} فإنه لا يمكن القول بأنه حقًّا تغيّر من طرف العالم القديم إلى الطرف الآخر، إلّا حيث انحدَّر الدين إلى نقطة فقدان النظر عن الغرض الفعلي لوجوده، وهو قبل كل شيء لإعادة وحدة الإنسان مع منبعه المطلق، والأبدي واللامتناهي. بالضرورة يظل إدْراك أعلى مكانة إنسانية كما هو، أينما احتفظ الدين بهذا الهدف في رؤيته؛ ديانات العالم العظمى، التي تسمح دائمًا باختلافات معيّنة في الصياغات، في الواقع أجمعت أن الخاصية الأساسية للشخص الذي استعاد حالة الإنسان الأوليّ، أنه قد استعاد، نتيجة لذلك، صحة النفس بالكامل، هو في وعيّ «بملكوت السماوات بداخله»: إنه لا يحتاج لأن «يطلب» لأنه قد «وجد»، ولا يحتاج لأن «يقرع» لأنه قد «فُتِحَ له»؛ النفس الإنسانية شبيهة-المرايا، من خلال هذا الفتح قادرة على أن تعَكِس الصفات الإلهيّة وأن تكون، كما خُلِقَت، «على صورة الله».

الفضائل **Qualities** تُمَثَّل في المذهب الإسلامي بنوعين، فضائل للجلالة وفضائل للجمال، وهو ما يتفق مع ما تُعَلِّمه الأديان الأخرى،

ضمنيًّا إن لم يكن مُعَبَّرًا عنه بوضوح، عن الكمال الإلهيّ[٢٨]. يمكن إذَنْ، تعريف أعلى مثال على المستوى الإنساني بأنه جلالة وجمال النفس، وفي طبيعة الأشياء بذاتها يجب أن يضاف إليه القداسة والتواضع[٢٩]، القداسة بفضيلة اتصال النفس المباشر مع الروح والتواضع؛ لأن فقط النفس التي يمكنها الاتصال بالروح واعيةً، بالمقارنة مع قصور النفس في حد ذاتها.

قبل كل شيء، يتجسد هذا المثال في كل حضارة حكومة دينية في الرسول الإلهيّ، مؤسس الدين الذي تقام عليه الحضارة، وفي نواة الرجال والنساء الذين كانوا رفقاءَهُ وخلفاءَهُ المباشرين. هذا المثال المتجسد يحتفظ به في قبورهم، كما يحتفظ به أيضًا في قبور قديسين لاحقين، وكل ضريح مثل هذا الضريح يثري المجتمع باحتمال آخر للحج. إنه يُمَجَد في الطقوس الدينية وفي الشِّعر والرسم والنحت. بترجمته إلى لغة الرموز الهندسية، فإنه يقف متبلورًا في جلالة وجمال المعابد العظيمة حيث يسمع أيضًا، بتبديل في النغم والنبرات؛ وهذه الموسيقى، وهي تسري خارجيًّا إلى العالم، تضع ختمها إلى حد ما بعمق على كل الموسيقى غير التابعة للطقوس الدينية ومن كل طبقات المجتمع، تمامًا مثل منازل كل من الأغنياء والفقراء، التي هي إطالة بطرق مختلفة ودرجات مختلفة، لمكان العبادة المجتمعي المركزي.

---

(٢٨) يُرمَز إلى هاتين الوُجْهتين {المظهرين} للإلهية في تقليد الشرق الأقصى، على التوالي، بالتنين والطائر الأسطوري {العنقاء}، ويرمز لهما بالنسر والطاووس في التقليد اليوناني-الروماني.

(٢٩) عُبِّر في المسيحية عن تلك الفضيلتين، وأيضًا عن الجلالة والجمال، بالاسم المزدوج المسيح-مريم *Jesu-Maria*

إن رأس وقاعدة الصليب يُمَثِّلَان القداسة والتواضع؛ والذراع اليسرى تُمَثِّل الجلالة، متضمنةً العدالة وفضائل أخرى تعكس الصرامة الإلهيّة، والذراع الأيمن يُمَثِّل الجمال، متضمنًا كل انعكاسات الرحمة الإلهيّة {مثل الانعكاسات في المرآة}. وبحس أعلى، الجلالة هي انعكاس للمطلق والأبدي؛ الجلالة في حد ذاتها، غير منفصلة عن القداسة وتشمل ضمنيًّا كل الفضيلة، ويرمز لها بالجزء الرأسي من الصليب، بينما الجمال، متضمنًا كل الفضائل وعاكسًا {مثل الانعكاس في المرآة} للكنوز اللامتناهية والكرم الإلهيّ، مُصَوّر في سِعَة الجزء الأفقي.

الصليب أيضًا مظهر للوحدة، من خلال توجه أطرافه نحو مركزه، تمامًا مثل كون الإشارة في كل الاتجاهات هي مظهر للكلّية، وهنا يقع مظهر آخر لكونه في صورة الله الواحد والكُلّ. يجب على النفس أن تكون كاملةً، لتكون سليمةً تمامًا. «القداسة»، و«التكاملية»، و«الصحة» هم في الأصل كلمة واحدة، وتم التفريق بينهم في الشكل والمعنى فقط من خلال تفتيت اللغة. فضائل الإخلاص والبساطة لا ينفصلان عن هذا الكمال؛ لأن كُلًّا منهم في طريقته الخاصة يعني عدم انقسام النفس.

السبب الأساسي لمرض الإنسان هو فقد الاتصال المباشر في داخله، بين هذا العالم والعالم التالي، ونتيجة ذلك فقدان حساسية النفس نحو المغناطيس الإلهيّ للقلب، وهو وحده القادر على معادلة إلحاح الاتجاه للخارج الذي تتعرض له كل البشرية؛ ومع عدم كبح هذا الإلحاح، تمامًا مثل تحرك أنصاف أقطار الدائرة متباعدين عن بعضهما البعض كلما ازدادوا بُعدًا عن المركز، فتقل حبكة نسيج العناصر النفسية

المختلفة أكثر وأكثر، وتقل وحدة النفس وبساطتها وإخلاصها أكثر وأكثر. كلمات وصية المسيح الأولى تأتي كترياق مهاجمًا هذا التفكك المزمن. الغرض من الدين في إجماله هو حبكة نسيج كل المتفككات في الإنسان عن طريق تنظيم قوة دافعة في النفس في اتجاه المركز، والتي ستعيدها مرةً أخرى داخل مدى جاذبية القلب؛ إذا كان ذلك ينطبق على الطقوس الدينية قبل كل شيء، فإنه سينطبق على كل شيء له وظيفة روحانية. على سبيل المثال، عندما نتأمل عملًا فنيًّا مقدسًا صحيحًا، فإن النفس تتجمع بأكملها كأنها تلبي أمر طلب حضور. ليس هناك أدنى شك في أن يكون هناك أي رد فعل جزئي {ناقص}؛ لأننا لا نستطيع أن نتعجب بما يكفي. هنا يقع جوهر الحضارة المقدسة، أن تستجمع النفس ذاتها وتحافظ على تماسكها، لتكون بجميع الطرق مِلْحَاحةً للأبد، ويقع واحد من أعظم تفوُّق الماضي على الحاضر في استجابة النفوس لهذا الإلحاح. لنأخذ مثالًا صغيرًا جدًّا، ومع ذلك ذو دلالة، وهو أنه لا يوجد لدينا من أي جهة الانطباع بأن جزءًا صغيرًا من النفس قد تفتَّت ثائرًا على الباقي عند استماعنا لموسيقى العصور الوسطى أو حتى عند استماعنا لموسيقى الرقص الأكثر بهجةً. على العكس، مثل هذه الموسيقى تستثير حضور الرجال والنساء الذين لا يستطيعون أن ينسوا، ولم يريدوا أن ينسوا في أوقات ملذاتهم، قِصَر العالم سريع الزوال ويقين الموت.

إن حضارتنا الحالية لا تلح اليوم على النفس بهذه المطالبات: أيًّا كانت «الأدوية» ذات الدلالة الروحانية التي يأخذها القلة، فإن العالم الحديث يراعي بأن يحاط الناس بترياق تلك الأدوية، وبجميع أنواع

السموم التي تحض على المرض بدلًا من كبحه، إنه واقع وحشي مثير للسخرية أن الحضارة الوحيدة التي تنفي «الوراثة» وتضع كل «إيمانها» في «البيئة» هي فريدة في عدم وجود بيئة موجبة لديها لتقدمها. لن تكون هناك مبالغة في أن نقول إنه كثيرًا، إذا لم يكن معظم الخير الذي يرثه الناس اليوم في خطر داهم، لكونه قد ابتلى، على الأخص، بالبيئة المحكوم عليهم بالنمو والعيش فيها. إن تعليمهم، والعمل الذي يجب على معظمهم القيام به(٣٠)، والملابس التي يجب عليهم أن يرتدوها(٣١)، وبالإضافة إلى كل ذلك، ربما الطريقة التي من المفترض أن يقضوا بها أوقات فراغهم و«الاستمتاع بوقت ممتع»، محسوبة ليس لأن تخمد كل إحساس بالجلالة والجمال فقط، ولكن لتمحو كل فضائل الوحدة،

(٣٠) إذا استطاع الماضي أن يشهد على الحاضر، مشيرًا إلى معظم وسائل المعيشة في العالم الحديث، سيصرخ قائلًا: «هل خُلِقَ الإنسان لذلك؟».

(٣١) إن القدماء قد عرفوا جيدًا أن الملابس هي البيئة التالية الأقرب إلى النفس الإنسانية بعد الجسم، ولها تأثير بالغ عليها. كان ملبسهم دائمًا تذكرةً لرفعة الإنسان كممثل لله على الأرض، بينما شهد تغيرًا فائقًا من حضارة إلى أخرى. ولكن في أوروبا الغربية يجب علينا أن نرجع حوالي ألف عام حتى نجد ملابس تحمل مقارنة مع ملابس حضارات حكومات دينية أخرى، أو مع وقار العري البسيط. حقًّا إنه في العصور المسيحية الوسطى المتأخرة استمر ظهور إحساس معيّن بالشكل والنِّسَب في الملابس التي يرتدونها، ولكنها كانت عاديةً بما لا يسمح للالتباس، فقد ضربت نغمة دنيوية واضحة {هذه الملابس}، وهي بشرى مشؤمة لما هو آتٍ. من منتصف القرن السادس وما يليه، بينما استمر باقي العالم في الإخلاص للزي التقليدي، مرَّت الأزياء الأوروبية من نوبة إلى نوبة من التبذير والأناقة التافهة، نوع من سُكرة موت القيّم الروحانية، لتنتهي بزي، كما يقول عنه العرب إنه «تنبعث منه الرائحة الكريهة للإلحاد». لرؤية موضوعية لطبيعة الأزياء الحديثة المضادة للروحانية، فإنه يكفينا تذكر أنه في الفن المقدس لكثير من الحضارات يتم تمثيل تصويري لكثير من الأرواح المقدسة في الجنة، دون ما يثير الدهشة والاستنكار، وهي ترتدي ملابس يرتديها الفنان ومعاصروه. لنتخيل تلك الصورة بريشة فنان حديث للأشخاص وهم يرتدون أزياء عصره. من الملحوظ أيضًا أنه كلما كانوا «منضبطين» في ارتدائهم للزي، أي كلما كانت ملابسهم بارزةً في تمثيل القرن الذي نعيش فيه في أي من عقوده، كلما كان التأثير مُحَطِّمًا.

والبساطة، والإخلاص عن طريق تجزئة المادة النفسية إلى شظايا {قطع صغيرة}. بدلًا من أن تكون مُنضَبْطةً على أن تكون «كلها هنا»، تنسى النفس كيفية إعطاء نفسها بالكامل لأي شيء؛ لأنه يوجد القليل، أو لا يوجد شيء، في نظامها اليومي يمكنها أن تقترب من الرضى عليه بالكامل. البيئة المحيطة بها مثل أيادٍ لا تُعَد ولا تُحصى تشدها من جميع الاتجاهات كأنها تقول «أعطني مجرد جزء صغير من انتباهك»، وهذه «الأيادي» في ازدياد دائم، وطلباتها دائمًا أكثر تفاهةً.

في قول آخر، فيما يخص الصحة النفسية، العالم الحديث في زيادة متواصلة إلى أن يصبح مثل مستشفى ضخم تواجه فيه الأمراض الخطر الحقيقي لأخذ عكس العلاج الصحيح لهم، إذا جاز القول، مستشفى حيث المصابين بداء السكري يعالجون بنظام غذائي أساسه السكر – إلى هذا الحد فإن المعالجين قد «غسلوا أيديهم» من النفوس، على الأقل فيما يخص المطيعين للقانون والأصحاء.

* * *

التطابق بين القلب كمركز الجسم وبين الشمس كمركز للعالم المادي، هو من ضمن أوجه التطابق المادي المبني عليها العلوم المقدسة، كلّ من القلب والشمس هم رموز لهذا القلب الذي هو مركز كل الأشياء. معرِفة مركزية الشمس ورمزيتها، قلَما تنفصل عن معرفة أن الأرض والكواكب تدور حول الشمس، وبذلك لن تكون مفاجأةً أن بعضًا من الحكماء في العصور القديمة يجب أن يكونوا قد عرفوا، في هذا الصدد، ما يعرفه علماء الفَلك في العصر الحديث. ولكن يمكن أن يكون هناك

قليل من الشك، في أنه حتى الزمن الذي عاش فيه كوبرنيكس معظم الناس كانوا يعتقدون أن الشمس تدور حول الأرض. منذ هذا الزمن، وخاصة منذ جاليليو، عدد متزايد من الناس عرفوا أن الأرض هي التي تدور حول الشمس؛ وفيما يبدو هنا أيضًا أنهم دفعوا ثمنًا لجزء من معرفة على مستوى منخفض بخسارة معرفة ثمينة مماثلة لها على مستوى أعلى. إذا كان القدماء عامةً لم يعرفوا أن الأرض تدور حول الشمس، فإنهم عرفوا أن النفس الفردية التي تماثل الأرض، تدور حول الشمس الداخلية، رغم الوهم بأن الذات الإنسانية هي مركز مستقل في حد ذاتها، وهذا الوهم، بدرجة ما، مُعَرض له الإنسان الساقط بالتعريف. اليوم عندما تكون الذات الإنسانية، وهنا نتحدث جمعيًّا، قريبةً من الوصول إلى أقصى انفصال عن القلب، وعندما تكون الأحجب بين القلب والنفس قد وصلت آلى أقصى سُمك لها، يكون الوَهم بمركزية الذات بالضرورة في قمته، وفي الواقع معظم هؤلاء الذين يثْنون على «اكتشاف» كوبرنيكس بأنه «واحد من الأحداث الفاصلة في مسار التنوّير الإنساني»، لديهم شكوك خطيرة، إن لم يكونوا ناكرين إنكارًا تامًّا لوجود الشمس الداخلية. ليس في أن اكتساب المعرفة السفلى يتسبب مباشرةً في خسارة المعرفة الأعلى، على الرغم من أن العلاقة بين الاثنين قد تكون أقرب عما تبدو أن تكون. لكنَّ خسارةً واحدةً مع كسب الأخرى هو تبعية لا يمكن إنكارها، للنقلة العامة «لمهارة» الإنسان مما هو روحاني إلى ما هو مادي.

* * *

الطيران، وشفاء المرضى، ومعرفة ما هو المركزي وما هو الهامشي،

هم ثلاثة أمثلة لاحتمالات عندما تم خنقها أو أُوقف نموّها الطبيعي على مستوى أعلى، قد انفجرت كلها نحو الخارج في نمو ثوري بارز على مستوى أكثر انخفاضًا. لنأخذ الآن مثالًا رابعًا، وهو يتضمن الموضوع بأكمله، من زاويته المعيّنة، مثل كل من الآخرين.

إن النفس هي من هذا العالم، بينما الروح ليست منه؛ لكن حيث إنه كانت هناك استمرارية نسبية في البداية بين النفس والروح، يوجد جزء معيّن من المادة النفسية –ذلك الذي يقع في الحد الأعلى من النفس قريبًا من القلب– وهو من جهة معيّنة «ليس من هذا العالم»، حيث إن وظيفته هي استلام نور الروح من خلال العقل. من جهة أخرى، فإنه «من هذا العالم»؛ لأن وظيفته هي نقل هذا النور لملكات النفس الأخرى، وأيضًا لأنه مع حجب العقل وغلق الحدود بين العالمين، تُرِكَ في الجانب الموجود به النفس.

هذا هو أعلى وأغلى جزء من المادة النفسية، وليس هو إلّا المجال الخاص بفضائل الإيمان والرجاء والحب الثلاث، والتي هي ثلاثة أساليب لطموح النفس نحو العالم التالي. لننظر الآن إلى الفضيلة الوسطى، والتي من جهة ما تشارك في كُلٍّ من الفضيلتين الأخريين.

تَتَكوَّن فضيلة الرجاء عند رؤية حياة الإنسان كرحلة تؤدي إلى التحقيق اللامتناهي والأبدي لكل الأمنيات المحتملة، ما دامت الشروط المعيّنة التي في مقدرتنا تمامًا، قد تحققت. يمكن لقلة استثنائية – استثنائية من منظور المرحلة الحالية من الدورة– الوصول أيضًا لهذا الهدف، خلال هذه الحياة وليس فقط بعد الموت. في أي من الحالتين، الشروط

التي يجب تحقيقها حتى تكون الحياة رحلةً في الاتجاه الصحيح، دائمًا تخص التقَدُّم ضد التيار «نحو المنبع»، مع وجود طرق كثيرة مختلفة لعمل ذلك، بعضها أسهل بالنسبة لمجموعة ما من المجاميع الإنسانية، والبعض الآخر أسهل لمجموعة أخرى - ومِنْ ثَمَّ {وجدت} الأديان المختلفة.

أيضًا في كل دين، يوجد دائمًا مجال معيّن للاحتمالات يسمح بالاختلافات الكبيرة بين الأفراد. على سبيل المثال، من الواضح أن حياة {حالة} الحج الدائم تختلف ظاهريًّا تمامًا عن حياة المنشد لنص ديني، أو المبتهل للاسم الإلهيّ في انعزال دائم عن العالم؛ وأيضًا يوجد احتمال الحياة التي يخترقها الابتهال أو التأمل، أو كلاهما، ولكنها ظاهريًّا تتبع مسار كسب العيش، ومن وقت لآخر مثل هذه الحياة يمكن أن يخترق مسارها حج أو خلوة روحانية. لكن مهما كانت الفروق الخارجية، الهدف المرتقب في النهاية دائمًا واحد، وهو سمو الفردية الإنسانية من خلال نعمة مُنزلة بواسطة العبادة لاستعادة الاتصال المفقود مع الروح. يمكن أن يقال إن الطموح الديني، حتى في أقصى مستويات انخفاضه، بمعنى ممارسة أقل عبادة شرعية خوفًا من الهلاك الأبدي، لديه هذا الهدف السامي في النهاية، ولو بأسلوب غير مباشر؛ لأن الخلاص يقود إلى التطهير الذي هو في حد ذاته مفتاح التقديس.

حتى وقت قريب، هكذا كان توجيه الإنسان في كل أنحاء العالم: كانت كل المراكب، إذا جاز التعبير، تشير مقدمتها على الأقل إلى المنبع {ضد التيار}، سواء كانت قوة التيار، تنقلهم في الواقع مع {اتجاه} مَجْرى

النهر أو لا. لكن في المئتين عام الأخيرة أو أقل - سيكون من الصعب تحديد الفترة بدقة أكثر - جاء الوقت لعدم توافر أقل مجهود مطلوب للاحتفاظ بمقدمات المراكب في الاتجاه الصحيح، عدد من المراكب التي كانت تنجرف للخلف مع مجرى النهر انحرفت لتقابل الهجوم للتيار على جانب المركب، ولتكون بذلك بلا توجيه على الإطلاق؛ ومن هذا الوضع من الشك، وعدم التأكد وفقدان الأمل، والذي لا سند له، لم يكن من الصعب على التيار أن يحوِّل اتجاههم تمامًا لمواجهة الطريق الذي انجرفوا فيه. مع صيحات النصر بأنهم كانوا «أخيرًا يتقدمون إلى الأمام»، دعوا الذين ما زالوا يبذلون جهودًا جبارةً في اتجاه المنبع «ليلقوا أغلال التشاؤم بعيدًا» و«ليتحركوا مع الزمان». سرعان ما تم اختراع قانون إيمان جديد، ورغم أن ما تضمنه نادرًا ما تم مواجهته بالكامل، فهو من الواضح أنه قد بدد كل مجهودات الإنسان المتوجه إلى المنبع في الألفية الماضية تمامًا، أي المجهودات «الرجعية» أو «المضادة للاتجاه المألوف»؛ لأنها كانت لا طائل منها ومُضَلَّلَةً؛ لكن «بالرغم من أن كل ما فعله الرجعيون للاحتفاظ بالجنس البشري في ليل الجهل المظلم، لكن العنصر التنموي في الإنسانية يشق طريقه تدريجيًّا للأمام»، حتى وصلنا الآن لما وصفه رجل سياسي في أوائل هذا القرن بـ«الصباح العظيم للعالم».

في أَثناء ذلك، تم جعل «مذهبهم» يبدو أكثر إقناعًا بإضافة معظم رجال الماضي العظماء إلى السلالة التي ينتمون إليها. لم يكن الثوريون وحدهم هم من مُدِحوا لكونهم حُمَاة النمو في أيامهم، ولكن الرموز الروحانية العظيمة أيضًا. أُطلِقَ على بوذا، والمسيح، ومحمد ﷺ بأنهم

كانوا «سابقين لعصرهم بكثير»، مع التغاضي عن الواقع بأن مهمتهم كانت لقيادة الإنسان للعودة إلى الكمال الأوّلي الذي خُلقت عليه البشرية.

في الواقع، ثبتت صحة وحقيقة القول بأن «الإنسان لا يستطيع أن يعيش من دون أمل». مجرد أن توقَّف جزء كبير من الإنسانية عن الإيمان بإمكانية النمو «الرأسي»، نمو الفرد في اتجاه ما هو أبدي وما هو لا-متناهٍ، حتى بدأ الإنسان في تثبيت رجائه على «نمو» أفقي غامض للإنسانية بأكملها نحو حالة من «الرفاهية» الأرضية، والتي توجد أسباب كثيرة للشك ليس فقط في إمكانيتها، ولكن في الاستحسان والرغبة فيها أيضًا - مفترضين أنها ستكون الثمرة النهائية للاتجاهات الموجودة الآن - والتي في أي حالة ليس لأحد الإمكانية في الاستمتاع بها لأكثر من بضع سنوات، وهو مدى الحياة الإنسانية القصيرة.

* * *

الأشخاص اللا-أدريين والملحدون يستطيعون أن يقطعوا طرفًا من أطرافهم، ولكنهم لا يستطيعون، برفضهم الإيمان بالمتعالي، أن يُخَلِّصوا أنفسهم من تلك العناصر النفسية التي وظيفتها العادية هي أن تكون مركبات الطموح نحو المتعالي، ويمكن شرح الكثير من التنافر الموجود في العالم الحديث بسبب كميات من المواد النفسية غير المرغوب فيها في نفوس قادته وآخرين. خطورة هذه المواد عندما «يُطلق سراحها» يزداد حجمًا لاحتوائها أقيم وأقوى عناصر النفس في حد ذاتها؛ وبعيدًا حتى عن الملحدين واللا-أدريين، فإن الدين شبه-اللا-أدري الفاتر الذي

يعتنقه مُعظَم «قادة الفكر» في الغرب الحديث الذين يعتنقون أضعف درجات الدين، عاجز عن فتح شبابيك النفس المطلة على السماء، والتي تجعل لها مخرجًا لأعلى طموحاتها، وهي {أي الطموحات العليا}، بالتالي تترنح وتنقلب وتقع وسط الطموحات الأرضية المقبولة، وهنا تخلق تشويهات وفوضويةً، وتختنق تحت ركام الأحلام العاطفية وغير الحقيقية على الإطلاق معظم الخير الذي قد تحققه الواقعية الرزينة إذا تُرِكَت لنفسها. كأنه يجب على طائر، رافضًا أو غير قادرٍ على الطيران، أن يعرقل نفسه مستخدمًا جناحيه. من أجنحة النفس التي هي في الواقع هذه الفضائل، كل ما يتبقى من الإيمان هو التعصُّب الصارم لزيف-دين النمو والتطوّر؛ كل ما تبقى من الرجاء هو تفاؤل مضحك يتبختر إلى المستقبل على أحجار صغيرة للغاية وغير مستقرة من «إنجازات» إنسانية، كثير منها محل تساؤل كبير، عبر مستنقع من أنقاض يرفض أن يراها؛ وهاتان الخرافتان تفاقمتا بحمية حماسية تغزو العقل، وبكونها لا تتناسب مطلقًا مع كل أهدافها، تفضح نفسها بسقوطها من قمة النفس ذاتها، ولكونها في الواقع هذه القمة بالفعل، رأس السهم الحاد لظمأ الإنسان للإلهية، انقلب والتَفَت نحو هذا العالم حيث تستنفد كل طاقته، مُجَرجِرةً النفس من خلال شغف بعده شغف في بحثها العبثي عن مُطلَق دنيوي.

* * *

الفصل الرابع

الحرية والمساواة

إن عالم اليوم هو فوضى من الآراء والطموحات المتصادمة: ما يُسمَّى «بالعالم الحر» هو فوضى سائلة؛ وجزء العالم الحديث الذي يسيطر عليه حزب واحد يخضع الجميع لمشيئته هو فوضى متصلبة. على العكس من كليهما، كان العالم القديم نظامًا دائمًا، أي هيرارخية من المفاهيم، كل منها في المستوى الملائم له. السبب في الفوضى، كما رأينا، هو التنزيل «التداخلي» للهيرارخية بواسطة {ثقافة} الإنسانية humanistic حتى المستوى النفسي، وبالتالي تدخل الطموحات الزاهدة في الدنيا المُحبَطة والمنحرفة في الاعتبارات الدنيوية. كَون الإنسان مُجَهزًا بطبيعته الفعلية للعبادة، فإنه لا يستطيع ألّا يعْبُد؛ وإذا قُطِعَت تطلعاته عن المستوى الروحاني، فإنه سيجد «إلهًا» ليعبده على مستوى أقل، مانحًا بذلك شيئًا نسبيًّا لما يتعلق بـ«المطلق» فقط. ومن ثم تواجد «كلمات كثيرة ذائعة الصيت» اليوم مثل «حرية»، و«مساواة»، و«معرفة القراءة والكتابة»، و«علم»، و«حضارة»، كلمات عند النطق بها

تقع أنفس لا تعد ولا تحصى ساجدةً في حالة عبادة لا-ذهنية. المعتقدات الخرافية بالحرية والمساواة ليست مُجَرَّد النتائج ولكن هي أيضًا، جزئيًّا، سبب من أسباب الاضطراب العام؛ لأن كلًّا منها تمرُّد ضد الهيرارخية بطريقته؛ ولديهم قوة أذى غير عادية لكونهم تشوهات لاثنين من أعلى القوات الدافعة للإنسان. إن فساد الأفضل هو الفساد الأسوأ؛ لكن {إذا} أعدتَ النظام القديم سيتبخر الصنمان المشار إليهما من مستوى العالم (تاركين مساحةً لتتنفس الطموحات الأرضية المشروعة للحرية والمساواة) ليأخذا مكانهما مرةً أخرى أعلى قمة الهيرارخية الفعلية.

قبل كل شيء، فإن الرغبة في الحرية هي الرغبة في الله، لكون الحرية المطلقة مظهرًا جوهريًّا للألوهية. إذَنْ، الحالة الروحانية العليا في الهندوسية التي تشير إلى نهاية المسار الصوفي هي تلك الحالة التي تُسمَّى تحرير (موكشا) **moksha**؛ لأنها حالة الاتحاد (يوجا **yoga**) مع المطلق، واللا-متناهي والأبدي، وبالتالي الحرية من كل قيود النسبية. قبل كل شيء، من الواضح أنها تلك الحرية التي أشار إليها يسوع المسيح عندما قال: «وتعرفون الحق، والحق يُحَرِّرُكُمْ»، حيث إن المعرفة المباشرة، المعرفة الباطنية **Gnosis**، تعني الاتحاد مع موضوع المعرفة، أي مع الله. ولكن تلك الكلمات التي قالها يسوع المسيح لها أيضًا تطبيق ثانوي على مستوى أقل انخفاضًا: يوجد تحرر نسبي في المعرفة المباشرة للحقائق الروحانية؛ لأن تلك المعرفة تعني مدخلًا إلى عالم أعلى {أرقى} وبالتالي احتمال الهروب من هذا العالم. هذا الهروب هو «الصعود من الكهف» في صورة أفلاطون الشهيرة، ولن يكون خروجًا عن سياق الموضوع عند

استعادة ما قاله هنا؛ لأنه يمثل كلًّا من وجهة النظر الشرقية والغربية في العالم القديم.

أفلاطون -أو بالأحرى سقراط، لأنه يجعله المتحدث في هذه المحاورة(٣٢)- يطلب منا تخيّل كهف كبير تحت الأرض، يعيش فيه سجناء محتجزون منذ طفولتهم. ويتم إجبارهم على الجلوس في صف طويل مواجه لأحد جدران الكهف، ومكبلين بالأغلال في مقاعدهم بطريقة تمنعهم من إدارة رأسهم، قادرين فقط على النظر للأمام. وبسبب نار اشتعلت خلفهم يُلقي الضوء على الجدار، حاملًا الأشباح المصنوعة على شكل دُمًى ممثلةً كل أنواع المخلوقات الأرضية الحيّة والميتة. لكن بسبب عدم مقدرتهم على إدارة رأسهم إلى الخلف، فالمساجين لا يستطيعون إلا أن يروا الخيالات التي تلقيها أشباح الأشياء المتحركة على الجدار الذي يقع أمامهم.

ثم يطلب منا سقراط تخيّل هرب أحد السجناء من قيوده. أولًا، فإنه يصبح قادرًا على أن يستدير ويرى الدُمى مباشرةً. ثم يهرب من الكهف ويصعد إلى العالم الخارجي حيث يمكنه رؤية كل هذه الأشياء التي شُكّلت على صورتها هذه الدُمى. في البداية فإنه يكون قادرًا فقط على النظر إلى خيالاتهم وانعكاساتهم على الماء أولًا في ضوء القمر، ثم في ضوء الشمس؛ ثم يصبح قادرًا على النظر إلى الأشياء نفسها؛ وأخيرًا يصبح قادرًا على النظر إلى الشمس.

الكهف هو هذا العالم، والسجناء هم ذائقو الموت خلال حياتهم

(٣٢) الكتاب السابع من جمهورية أفلاطون، أو بالأصح، مدينة أفلاطون.

على الأرض. لا يستطيع السجناء الرؤية بوضوح، حتى رؤية الدُّمى **puppets**، أي، أشياء هذا العالم، بسبب انعدام الموضوعية نتيجة الكسل، والبلادة والهوى؛ يمكنهم فقط رؤية هذه الأشياء من خلال رؤية شبه مبهمة وغير واضحة، «فإننا ننظر الآن في مرآة، في لغز، لكن حينئذ وجهًا لوجه»(٣٣). العالم الخارجي هو العالم التالي، الذي يحتوي على حقائق روحانية والأشياء التي في هذا العالم هي رموزها. زيادة قوة رؤية السجين الهارب بعد أن صعد للعالم الخارجي مماثلة تمامًا للزيادة في إشراقة ابتسامة بياتريس حين قيادتها لدانتي صاعدًا السماوات السبعة. هذه الزيادة تدل على تركيز الإدراك العقلاني المباشر عندما ترتفع الكينونة طوال هيرارخية الحالات الروحانية، مكتسبة مع كل حالة درجةً أكثر امتلاءً من التحرر، هكذا مقارنة الحرية الممنوحة بالهروب من السلاسل تتضح لنا نسبيةً أكثر وأكثر، ناهيك عما يُسمَّى عامةً «حريةً»، أي، تلك الحريات الأقل مثل التي يمكن أن يتمتع بها السجناء أنفسهم، معظمهم لا يطمعون حتى في أن يتحرروا من قيودهم. يدعونا سقراط لتخيّل كيف تبدو أنشطة واهتمامات هؤلاء السجناء، مركزين تمامًا على ظلال الدُّمى **puppets**، لمن وصل إلى قمة كل التنوير.

إذا تأملنا صورة أفلاطون لبرهة من الوقت، والذي كانت نيّته بالتأكيد أن نفعل ذلك، فمن الواضح أن رفيعي الشأن من بين هؤلاء الذين يهربون من الكهف ثم يعودون إليه هم الرسل الإلهيون، مؤسسو الأديان، بعض منهم لم يكونوا سجناء أبدًا، ولكن مجرد أنهم نزلوا من

---

(٣٣) ١ كورنثيوس ١٣: ١٢.

أعلى. في كلتا الحالتين فإن مهمتهم دائمًا أن يقولوا لسجناء الكهف عن الشمس والقمر، وعن الرجال والنساء، والحيوانات والطيور، والأشجار والورد، وفقًا لحجمهم الكامل، وعن روعة أشكالهم وألوانهم؛ وبعض من السجناء يستمعون بشغف لكلماتهم ويمتلئون باللهفة للهروب من عالم الخيالات إلى العالم الحقيقي، لكن كثير منهم يغضبون، مدعين أن الأنبياء مجانين أو حالمون، وأن خيالات الدُّمى هي أعلى حقائق كائنة.

في ضوء هذه الصورة سيظهر أن الفرق بين المؤمن والمتشكك ليس كالفرق بين المسجون والحر، ولكن كالفرق بين اثنين من المساجين، واحد منهم واعٍ لسجنه، بينما الآخر يرفض أن يُقِرَّ أن هذا العالم هو سجن؛ لأن أفكاره توقفت عند جدران سجنه.

* * *

إذا اقتفينا أثر مفهوم المساواة حتى مصدره في المطلق، سنجد أنه مظهر من ذلك الاحتمال الروحاني الأعلى التي تسميها المسيحية «التأليه»، والتي تعبر عنه الهندوسية بكلمات «أنت هو ذاك» (الله هو روحك الحقيقية). الاحتياج إلى المساواة، الذي هو جزء من الحنين الموجود في نفس الإنسان الساقط، هو قبل كل شيء الاحتياج لأن نكون «جديرين» مرةً أخرى بالحضور الإلهي. هذه الجدارة، الأعظم في كل الأساطير، يعبر عنها في الإسلام بالكلمات التالية في الحديث القدسي: «مَا وَسِعَنِي سَمَائِي وَلا أَرْضِي، وَلَكِنِّي وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ».

يتساوى أعظم القديسين بفضل المساواة في فراغهم الداخلي الذي يستقبل سعة اللا-متناهي؛ وهذه المساواة لها، كأساس لهيئتها الإلهية،

ما يمكن أن يُسمَّى بهيئة سماوية. قصيدة اللؤلؤة، هي قصيدة إنجليزية تنتمي إلى العصور الوسطى، تحكي عن رجل يزور قبر ابنته المتوفية، وأثناء ذلك ينام هناك، ويرى رؤيةً لها أنها في الجنة. ويسألها عن حالها، فتقول له إنها ملكة الجنة. فيستنكرها وترد عليه قائلةً: «حقًّا، كما تقول، إن القديسة مريم العذراء هي ملكة الجنة؛ ولكن هذا هو عطفها وكرمها الذي لا يُدرَك في سماحها لآخرين ليحكموا كملوك وملكات».

إن مجتمع من الرجال متساوون جميعًا «اجتماعيًّا»، حتى على المستوى الإنساني، ليس مجرد حلم مثالي ولكن احتمالية، والتقليد يقول لنا إنه كان في الواقع معيارًا نموذجيًّا على الأرض لآلاف السنين. إن تعريف العصر الذهبي هو العصر الذي يكون فيه كل الناس «أعلى من الطائفية». لكن عند فشل مثل هذه المساواة، يصبح من الأفضل جدًّا وجوب أن تظل بعض عناصر الإنسانية متفوقة نسبيًّا، عن أن يغرق الجميع في تساوٍ دون المتوسط، وكان «نظام الطائفية» وسيلةً بين وسائل أخرى لوقاية ما تبقى من امتياز ووضعه في مكان يفيد فيه المجتمع ككل. علاوةً على ذلك، برر هذا النظام نفسه بإسهاب؛ لأنه كان بلا شك يُمَارَس ما بين الهندوس بصرامة ومنهجية، عن مُمَارسته بين شعوب أخرى، والهندوس هم الذين نجحوا في الحفاظ على دين قديم إلى أبعد حد بكل عقلانية على حالته الأصلية حتى يومنا هذا، والذي كان نظراؤه اليوناني والروماني والجرماني قد تدهوروا في الحقب التاريخية الأولى.

إن وجود طوائف أدنى هو شيء غير طبيعي في ذاته، ولكنه مضطر أن يصبح طبيعيًّا عند الاقتراب من نهاية دورة من الزمان، والعالم القديم

كان منشغلًا بمشكلة حفظ ذاته، وبأفضل وسيلة لوقف تدفق مجرى التدهور، أي مراجعة تنشئة الأجناس البشرية الدونية وتقليل سرعة حركة انحدارية علموا أنها لا محيد عنها؛ ولكن اختلفت طرق مقاومة هذه الحركة. النظام الطائفي يتضمن قبول واقع أن درجةً معيّنةً من التدهور قد حدثت بالفعل. وسيلة أكثر قدمًا من وسائل حفظ الذات هي بُعد الناس كل البُعد بقدر استطاعتهم، كما يفعل الهنود الحمر، عن بعض الأسباب الخارجية للانحطاط الإنساني مثل الحياة غير المتنقلة {رتيبة}، ثابتة في مكانها أغلب الوقت وكل ما يتماشى معها، والبقاء في اتصال مُقَرّب على قدر المستطاع مع الطبيعة العذراء، أي، في اتصال مادي {طبيعي} ونفسي خاضع للطقوس ومستنير بتواصل عقلاني حقيقي. هذا الشرط الأخير، هو شرط لا غنى عنه.

«من خلال فصائل الحيوانات وظواهر الطبيعة، يتأمل {الإنسان} الهندي الجواهر الملائكية والصفات الإلهيّة ... لا يوجد شيء بالنسبة لهم (وهم الهنود) هو على ما يبدو عليه، ولكنه ببساطة انعكاس باهت لحقيقة. لهذا السبب، كل شيء مخلوق هو مقدس، **wakan**.

المكان المقدس للإنسان الأحمر في كل مكان؛ لهذا السبب يجب أن تبقى الأرض على حالتها الأصلية، عذراءً ومقدسةً، في نفس حالتها عندما انفصلت عن الأيادي الإلهية – حيث إن ما هو نقي فقط هو ما يعكس الأبدي. الهندي لا علاقة له بمبدأ «وحدة الوجود، أو حلول الله في كل شيء»، ولا يتخيل للحظة واحدة أن الله في العالم؛ ولكنه يعلم أن

العالم منغمس بطريقة غامضة في الله»[٣٤].

يفرض المنظور طريقة حياة تجعل الاستغناء التام عن نظام طائفي ممكنًا، والاحتفاظ بنظام اجتماعي، على الأقل افتراضيًّا، هو استطالة لمساواة أزليّة. لا يوجد ما بين الإنسانيين الحمر «طبقات أدنى» ولا «طبقات متوسطة»؛ طالما يبقون صادقين مع أنفسهم وغير ملوثين بالرجل الأبيض، هم جنس من النبلاء لا يزالون ينتجون في كل جيل أقليةً قليلةً من الارتدادات إلى القساوسة-الملوك من العهد القديم.

لكن مجرد الإصرار على الترحال، إذا لم يكن مبنيًّا على اتصال عقلاني مع الطبيعة، هو فقط وقاية ضد أشكال معيّنة من الانحطاط. يوجد مسارات هابطة إلى أسفل كثيرة، والعالم من القِدَم بما يكفي حتى تكون الفروقات بين بعضهم كبيرةً. تستخدم اليوم كلمة «بدائي» بقليل جدًّا من التمييز. بالمقارنة مع رجال من أزمنة أكثر قدمًا، يعتبر الهنود الحمر، المنتمين إلى العصر الحديدي، أنفسهم منحدرين، ولكن نسبيًّا فإنهم بلا شك يستحقون لقب «بدائيين»، بينما كثير من، إن لم يكن معظم، «المتوحشين» الذين تطلق {الشعوب الغربية} عليهم اليوم «بدائيين» هم منحطون لأقصى درجة. ببساطة لا يوجد معنى لتسميتهم بدائيين؛ لأن قربهم من الطبيعة نجاهم من هذا الشكل المعيّن للانحطاط

(٣٤) كتاب «لغة النفس»، لفريثچوف شيون، ص ٢٠٥، ٢١١ من الطبعة الإنجليزية. هذا الكتاب يجب أن يُقرأ ليس لدراساته المبنية على اتصالات مباشرة عن روحانيات الهنود الحمر فقط، وبشكل رئيس لمن يسكنون منهم المساحات المفتوحة، ولكن أيضًا لفصل عن «تمييز في النظام الاجتماعي»، والذي يلقي ضوءًا له احتياج قديم على السؤال الشامل عن الطوائف والطبقات تبعًا لمنظور الديانات المختلفة.

الثقافي والحضاري، الذي وصل إلى أقصى حدٍّ له في الحضارة الحديثة.

إن تجسد النظرة العقلانية في سلطة روحانية حاكمة قوية هو ما اعتبره أفلاطون أحسن وقاية ضد الانحطاط، وهو ما يشاركه الهنود الحمر مع الهندوس بالإضافة إلى الحكومات الدينية اللاحقة الثابتة بأماكنها والتي ليس لديها نظام طائفي. طرق مدهشة ومُمَيِّزة التي يسعى بها نظام أحدث الحكومات الدينية للمعادلة أو التقليل إلى الحد الأدنى للمتعارضات بين الطائفة والطبقة، أي بين المؤهلات الطبيعية ووضع اجتماعي، مُعَرَّضًا أكثر وأكثر في أن يكون نتيجة مجرد «حوادث». العالم المسيحي حَفِظَ النظام الاجتماعي القائم بسبب تماثله الجزئي مع نظام طائفي حقيقي، ولكنه أسس فوقه طائفةً عليا، كانت متاحةً لكل الطبقات، ولكنها محمية ضد الدخلاء بالتضحيات بعيدة الأثر المفروضة على أعضائها. في الإسلام، الذي هو مناشدة مباشرة للقس-الملك الموجود في عمق طبيعة الإنسان، عضوية أعلى طائفة مفروضة على كل الطبقات؛ لكن تُسدّ «الهاوية» الموجودة بين مثال العصر الذهبي وواقع العصر المظلم بإصرار القرآن والنبيّ على «الدرجات». مع أن القول بأن الحضارة الإسلامية مخترقة بمفهوم الطائفية قد يبدو مضللًا، فإنه من الحق القول بأنها مخترقة بشكل رائع بمفهوم جوهر النظام الطائفي، تحديدًا بمفهوم هيرارخية الدرجات المختلفة من الإمكانيات الروحانية للجنس البشري. إذَنْ، بالنسبة للمسلم، الهيرارخية الدنيوية للتمييز الطبقي يكسف عليها قبل كل شيء بالمساواة الافتراضية لرجال الكهنوت، ثم تستبدل بالهيرارخية الروحانية داخل إطار هذه المساواة.

يقول أفلاطون، في تدبر تشكيل حكومة مثالية عمليًّا، والتي يطلق عليها «أرستقراطية»، أولًا أن يكون من الضرورة التوصل إلى فلاسفة حقيقيين وتنصيبهم كحكام، على الرغم من ذلك قد يكون ضد إرادتهم. من وصفه لهؤلاء الأرستقراطيين، فإنه من الواضح أنه يعني قديسين بالمعنى الكامل للكلمة وليس أقل من ذلك؛ لأن الفيلسوف الحقيقي هو الشخص الذي قد «هرب من الكهف» ولديه رؤية مباشرة «للشمس». دولة أفلاطون هي في الواقع دولة دينية: كونه قد هرب من الكهف، فقد أصبح الأرستقراطي، بالمعنى الكامل لأفلاطون، منذ الآن قادرًا على الذهاب والعودة بين الكهف وبين العالم أعلاه، وهنا يتضح معنى وظيفة البابا {حبر الأحبار}، **Pontifex** باللاتينية، حَرفيًّا «صانع الجسر».

لكن ماذا لو كان الملك أو الأمير الروحاني الذي له مطلق السلطة والسيطرة على دولة كبيرة بعيدًا كل البعد عن كونه أرستقراطيًّا حقيقيًّا في ذاته؟ ألم يبين التاريخ أن أعلى المناصب عُرضةٌ أن تكون مثل أثواب كبيرة جدًّا على مرتديها؟

إن «الحل» الحديث هو تصغير الثوب ليلائم قزمًا. طريقة القدماء كانت بالصبر والأمل في حضور إنسان أفضل. بجانب ذلك، فإنهم كانوا يعلمون أن الثوب في ذاته كان ثمينًا، حتى {عندما يكون} مستقلًّا عن مرتديه. رجل الدولة الدينية قد يكون بعيدًا جدًّا في الواقع عن امتلاك الدرجة الروحانية التي تقابل وظيفته، لكن مع ذلك هذه الوظيفة هي في ذاتها «صناعة جسر» بمعنى أن وجودها على رأس الدولة يؤكد سيادة الروحاني على الدنيوي. إنه إقرار رسمي «للمَخرَج من الكهف» وضمان

التوجيه الجماعي نحوه. إلى جانب ذلك، بالإضافة إلى الهيرارخية الخارجية للرؤساء الروحانيين يوجد هناك الهيرارخية الداخلية للقديسين، أي، الذين هم «صانعو الجسور» في ذاتهم، بعيدًا عن تنصيبهم في أي وظيفة قد يعملون بها أو قد لا يعملون بها، وهذه الهيرارخية الداخلية قد تستبدل، عمليًّا، الهيرارخية الخارجية، أو على كل حال تؤثر بطريقة لتعادل قصور تحقيق الوظائف الأعلى. طوال العصور الوسطى كان للمسيحية الغربية باستمرار قديسون عظماء متوالون في كل جيل، رجال ونساء كلمتهم كانت قانونًا على نطاق واسع وبعيد، في الواقع إن لم يكن بالتوظيف، ونفس الوضع بالنسبة للكنيسة الشرقية والدول الدينية العظيمة غير المسيحية والأبعد ناحية الشرق التي أنهت «عصورها الوسطى» في عهد أقرب. لكن من دون نظام الدولة الدينية ذاته، بهيرارخيته الرسمية الخارجية لتأكيد أن الإحساس العام بالقيم هو إحساس حقيقي، لم يكن لهؤلاء القديسين أن «يجعلوا نورهم يسطع أمام الناس» بمثل هذه الغزارة المبهرة. هنا يقع المعنى الحقيقي لحضارة الدولة الدينية، والتي تتواجد فقط لكي تدفع الحركة «نحو المنبع»، ولتصدَّ الانجراف «مع التيار»، للضبط والمحافظة على اندفاع حركة مركزية والتي ستقاوم نزعات الخليقة الطاردة من المركز- اختصارًا، لتُعِد بيئةً محيطةً للدين ليُنجز وظيفته بأفضل وسيلة؛ والقديسون هم الدين، بمعنى أنهم يجسدون كل ما هو «نحو المنبع» ومركزي. بالامتداد، هذا يُطبَّق أيضًا على الأنظمة الروحانية أو الأخوية، كل منها استطالة لحياة القديس الذي أسسها.

في مسيحية العصور الوسطى، بشبكتها من الأديرة ودور الراهبات

في كل أنحاء أوروبا وآسيا الصغرى، كل قرية كان لديها مركز واحد على الأقل من هذه المراكز لا يبعد عنها كثيرًا، مجموعة رجال ونساء عاشوا دورة المسيحية الكبرى بجدية– أعياد الحلول، وعيد الميلاد، والغطاس، والصوم الكبير، وآلام المسيح، وعيد قيامة المسيح، وصعود المسيح، وعيد حلول الروح القدس، وعيد انتقال السيدة العذراء المقدسة، وعيد القديس ميخائيل، وكل الملائكة وكل القديسين، وكل الأرواح، مرتبطين ببعض من خلال سلسلة أعياد القديسين اليومية لكل الشهور؛ والحياة الجادة لهذه الدورة حركت دوامةً روحانيةً قويةً كان من الصعب عدم الانجذاب فيها بقدر ما.

تعليمات دينية أساسية كانت تنشر للجميع من كل مركز، وإحسان لكل من يحتاجه. بالإضافة إلى ذلك، كان من الممكن دائمًا لأي شخص، حتى ابن أفقر فلاح، أن يتلقى أعلى التعليمات بشرط أن يُظهِرَ استعدادًا طبيعيًّا مُتَجذرًا بعمق، جديرًا بمذهب متأصل في الروح بنفسه. المفهوم الحالي بأن الطبقات السفلى في العصور الوسطى كانت «مقموعةً» مبني على مفهوم «العالي» الدنيوي المحض. لكنها ستكون من المتناقضات اللفظية بالنسبة لأي دولة دينية بالسماح لأي قطاع من مجتمعها بأن يُمنع عمدًا من الاقتراب من الروح، وهو الأسلوب الوحيد للصعود، والجدير بهذا الاسم من وجهة نظر راهب من العصور الوسطى، على سبيل المثال. بالنسبة له، أقل ما يقال إنه لا يبدو من المآسي الكبرى حقيقة أنه كان من الصعب جدًّا، إن لم يكن مستحيلًا، للفقير أن يستحوذ على الثراء والمناصب، والتي قد أدار، هو نفسه، ظهره لكلٍّ منهما. لكن فيما يخص

الصعود بالمعنى الحقيقي، حتى النظام الطائفي الأكثر صرامةً شديد ملزم بأن يؤيد -على هامش المجتمع- مسارًا صاعدًا متاحًا للجميع متضمنًا أعضاء من الطائفة السفلى، من دون أي قيود.

«إذا أخذت الهندوسية في الاعتبار، قبل كل شيء، تلك النزعات الأساسية في الطبيعة الإنسانية التي تقسم الإنسان إلى فئات هيرارخية كثيرة، فإنها -على الرغم من ذلك- تحقق المساواة في الطائفة-الفائقة للرهبان السائحين، **sannyasis**، والتي لم يعد الأصل الاجتماعي له أي تأثير فيها. حالة رجال الدين المسيحي مشابهة، بمعنى اختفاء ألقاب النبالة فيما بينهم: لا يمكن أن يصبح الفلاح أميرًا، ولكن يمكنه أن يصبح بابا للكنيسة ويتوِّج إمبراطورًا»(٣٥).

الحالات الفردية من الظلم والطغيان، والخلافات الواسعة التي اتسعت بين النظرية والتطبيق هنا وهناك، من وقت لآخر في العالم المسيحي وفي حضارات مقدسة أخرى معروفة في التاريخ، لم تكن بسبب خطأ الدولة الدينية، ولكن كانت من الإنهاك الجمعي لشيخوخة الجنس البشري في أقصى درجات وهنه وضعف ذهنه. علاوةً على ذلك، إذا ما ساءت الأمور، وكثيرًا ما كان يحدث ذلك، كان الفضل للدولة الدينية في عدم ازديادها سوءًا، ومن حين لآخر، وفي أوقات وأماكن معيّنة، كانت الأمور تسير بطريقة جيدة؛ وساد دائمًا الأمل في أن الخير الذي حدث قبل ذلك سيحدث مرةً أخرى.

يمكن تسمية العصر الحديدي بأكمله «بعصر الاختيار بين الشرّين»؛

---

(٣٥) Frithjof Schuon, *Language of the Self*, p. 141.

العصور الوسطى، بخلاف أي فترة تالية، كانت لديها على الأقل فضل استحقاق أن يطلق عليها «عصر الاختيار للأقل شرًّا». أسوأ الباباوات وأسوأ الخلفاء في الإسلام تسببوا في ضرر أقل، ولا يضاهي، مع ضرر رجال أمثال هنري الثامن، وأتاتورك وولاة آخرون افتتحوا {عصر} قَفْر الدنيوية الميؤوس منه.

كانت أوروبا في العصور الوسطى مثل رجل وقع تحت وطأة المرض، وعلم أنه سيثبت أنه مميت[٣٦]، والذي كثيرًا ما تسبب في تلوي جسمه بالكامل بالألم وأجبره على أن يتأوه مرةً تلو الأخرى. لكن التكوين كان صائبًا، والنبض كان قويًّا ومنتظمًا. ما زال الدم يسري خلال الأوردة والشرايين حتى أقصى الأطراف؛ وفي بعض الأحيان تهدأ الحمى لبرهة معيّنة، والمريض يتذكر حاله عندما كان يمتلك الشباب والصحة. هل من الأجدى أن يكون في هذه الحالة أو أن يكون، ربما بمعاناة أقل، مثل جسد في آخر مراحل المرض، مُخَدَّرًا لدرجة أن قلة الراحة النسبية التي يشعر بها[٣٧] ليس لها أي علاقة بحالته الحرجة التي هو فيها؟ نبضة

(٣٦) أجدادنا في العصور الوسطى عرفوا جيدًا ما عرفه أفلاطون عندما قال، حتى عن دولته المثلى (وكانوا بعيدين جدًّا عن اعتبار أن دولتهم مثلى): «كل ما تولَّد قابل للفساد، ولن يعيش إلى الأبد مثل هذا التكوين ولكنه سيتحلل». ولم يكونوا سيتفاجؤون، بما لا داعي له، بانحراف الأشياء التي حدثت هذا القرن؛ لأنه بشرح كيفية أن دولته الدينية، كانت، بما لا مفر منه، سيطاح بها وفي تعقبه مراحل الانحطاط التي من خلالها ستمر الدولة، يذكر أفلاطون أن «الديمقراطية» و«الدكتاتورية» هما أحط شكلين محتملين للحكومة، أحدهم ينوي قيادة الآخر، كون «الدكتاتورية» في مفهومه، هي حُكم المُهَيّج (الديماغوجي) الذي لا مبادئ له، والذي ينجرف في السلطة على موجة رد فعلية ضد فوضى الديمقراطية.

(٣٧) هذا هو الوضع عند الحديث جمعيًّا؛ أما فيما يخص الفرديات، العالم الحديث قابل أن ينتج مزيجًا، من المزاج والحال لا يمكن النَّفاذ منها حتى لأقوى «العقاقير». وصف زماننا مِرَارًا بأنه «عصر الانتحارات» و«الانهيارات العصبية» ليس بلا سبب.

القلب ضعيفة للغاية؛ أوشك الدم على الركود في الأوردة؛ الجلد يتقيح بالطفح المقزز؛ بعض الأجزاء المتطرفة من الجسم قد ضمرت بالفعل؛ والمريض، تبعًا لكونه أقرب إلى الغيبوبة أو الهذيان العقلي، يتكلم بصوت خفيض غير مفهوم أو يهلوس: «أنا أتحسن كل يوم عن الآخر».

لكن لو كان من الممكن للأفراد أن ينحطوا لأسفل عن الجماعية – على الرغم من أن كلمة «أسفل» بلا شك لن تناسب مثل هذه الحالة؛ لأن أعماق المأساة يمكن أن تكون أقل انخفاضًا عن اللا مبالاة – كذلك محتمل أيضًا للأفراد أن يهربوا من الوضع العام بمعنى إيجابي. لا يوجد أصدق من هذا المثال: «الهواء العليل»؛ لأنه ضرورة ميتافيزيقية، ناتجة مباشرةً من الوجود الكلي الإلهيّ (أي حلول الله في كل شيء)، بأن يكون هناك دائمًا «أحسن» خير يمكن أن يصنع من كل موقف. في الحالة الحاضرة التي أمامنا، جانب واحد من هذا «الأحسن» يمكن التعبير عنه كما يلي: في الماضي أعلن الإنسان عن عبث هذا العالم مباشرةً وعمليًّا، معبرين عن إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الدين، لكن العالم نفسه ظل صامتًا نسبيًّا، بينما يقل نشاط هؤلاء الناس الآن أكثر وأكثر في إعلان هذه الحقيقة، أما العالم نفسه، بما فيه الإنسان بمعنى سلبي خالص، يصبحون أكثر وأكثر صارخين بأعلى صوتهم عن عبثهم. في الواقع كل ما نعانيه يوميًّا من عالم خَرِف يثبت أنه حقًّا مكان «تفسد فيه العثة والصدأ»، وتتحطم الآلهة الكاذبة التي يتشبث بها الناس أكثر وأكثر بذات أيديهم.

إن القول بأن فقدان الإنسان للإيمان في هذا العالم هو موضوع، والإيمان في عالم تالٍ هو موضوع مختلف، هو تبسيط. إننا سلالة بعيدة

لإنسان فصل بين عالمه وبين العالم الآخر باب مفتوح وليس بابًا مغلقًا. كانت نفوسهم مجهزةً طبقًا لذلك، وقد ورثنا أشياء معيّنةً منهم، سواء كنا واعين لذلك أو لا؛ ورغم أنه لا يوجد فرصة لطير أن يطير طالما أنه يستمر في خدش الأرض بجناحيه، إذا كان من الإمكان استمالته للعدول عن خدش الأرض لسبب ما، سيكون هناك، على الأقل، إمكانية أن يحاول الطيران.

* * *

الفصل الخامس

العقل والفكر الاستنباطي

تبعًا لمذهب التقابل بين الفلك الكبير والفلك الصغير، فإن أصحاب القوى الدنيوية، أي، الملك والمندوبين عنه، في الفلك الكبير، هم نظراء مَلَكة الفكر الاستنباطي في الفلك الصغير، بينما ممثلو السلطة الروحانية متقابلون مع العقل. مَلَكات التخيّل والانفعال ومَلَكَات الحواس تقع أسفل الفكر الاستنباطي وعادةً تحت تحكمه. يحتاج الفكر الاستنباطي الإذْنَ الكهنوتي الذي يأتيه من العقل، حتى يتمكن من ممارسة وظيفته الملكية عليهم؛ لأنه يعتمد على العقل في معرفة المبادئ العليا التي يجب أن تؤَسَس عليها حكومته.

في الغالب، من الممكن أن يأتي هذا الإذْنُ من الخارج، أي من الدين، الذي عُرِّفَ كَكشف جزئي أو ظاهري للعقل الذي أصبح مهمًّا بفقدان الإنسان الاتصال بالعقل بداخله. يمكن أيضًا أن يأتي الإذْنُ، كما في حالة الأرستقراطي الحقيقي، من الاستمرارية الداخلية المُعَاد تأسيسها بين النفس التي تتضمن الفكر الاستنباطي، وبين الروح التي تتضمن العقل. في هذه الحالة، أصبح الفكر الاستنباطي مرةً أخرى، كما كان منذ الأزل،

إسقاطًا للعقل، والعلاقة بينهما هي واحدة من الرؤية الخالصة. وقد قالها مرجع روحاني عظيم لهذا القرن:

«الإيمان مهم للأديان، لكنه يكف عن أن يكون كذلك بالنسبة لمن يحققون أنفسهم في الله. عندئذ لا يستمر في الإيمان؛ لأنه يرى. لم يعد هناك أي حاجة للإيمان عندما يرى الإنسان الحق»(٣٨). بين مثل هذه الرؤية وأقل درجة من الاعتقاد يوجد درجات متوسطة كثيرة من البصيرة واليقين والإيمان. كلما قل تأييد التوجيه الخارجي للدين بواسطة اليقين الداخلي، كلما زاد عدم استقرار العلاقة بين الفكر الاستنباطي والعقل؛ لكن ما دامت هذه العلاقة معتنى بها على الأقل، يمكن أن يقال إن النفس تمتلك بُعدًا ثالثًا، بُعد العمق أو بعد الارتفاع.

الفكر ثلاثي الأبعاد، وهو نمط الفكر الوحيد الذي يمكن أن يعتبر عقلانيًّا، معناه ألا يؤخذ أي شيء على مجمله بقيمته السطحية، لكن بإرجاعه دائمًا، على مدى البعد الثالث، إلى مبدأ أعلى. على سبيل المثال، من الوجهة الأخلاقية، يعني ذلك دائمًا، تقييم فضيلة إنسانية كانعكاس أو كرمز لصفة إلهيّة بدلًا من تقييمها لذاتها فقط. القول بأن وظيفة الفن المقدس هو الكشف عن أو تأكيد البعد الثالث أيًّا كان ما يُصوره، هو تعريف حقيقي للفن المقدس، أي الفن في مفهومه الأصلي. على مدى هذا البعد، وفي ضوء رؤية النماذج الأولية الروحانية، أو في الأنوار الأقل

---

(٣٨) الشيخ أحمد العلوي. انظر كتاب مارتن لينجز: قديس مسلم من القرن العشرين، ص ٣٢ من النسخة الإنجليزية. *A Moslem Saint of the Twentieth Century*, p. 33 (George Allen & Unwin, 1961).

لمختلف درجات الإيمان، الفكر الاستنباطي السلطوي قادر على ترجمة الكون لبقية النفس وإعطائها معناها الحقيقي.

الإنسان ذو الفكر الاستنباطي هو من يرفض قبول أي سلطة أعلى منه. في الفلك الأكبر، عندما تتمَرَّد القوى الدنيوية ضد السلطة الروحانية، عاجلًا أو آجلًا ما يُتمَرَّد ضد المُتَمرِّد نفسه. لأي مدى استحق الملك جيمس الأول تسميته «بأعقل أحمق في العالم المسيحي» وهو شيء مشكوك في أمره. لكن عندما قال «من دون أسقف، لا يوجد ملك»، فإنه بالتأكيد أظهر حكمةً في إدراكه لهذه الحقيقة الكُلِّيّة، وحماقة في عدم إدراك أنه بالفعل «لا يوجد أسقف»، بمعنى أنه هو وأسلافه قد تمردوا ضد السلطة الروحانية واغتصبوا وظيفتهم، وبالتالي بذروا تقاوي مشاكل للمنتمين للعائلة الملكية الذين يرثونهم. كذلك في الفلك الصغير، إذا تمَرَّد الفكر الاستنباطي على العقل، إذَنْ يتمرَّد الخيال والانفعال بدورهم على الفكر الاستنباطي. يُستدعى الفكر الاستنباطي، بعد رفضه ما أعلاه في ذاته، لتقبل دون أي مناقشة كل أنواع القوات الدافعة والتي هي دون ما تقبله العقلانية الاستنباطية، وينتهي ليس بكونه ملكًا، ولكن كعبد ذليل يتواصل في إيجاد حل لتقاطر الأفكار تحت إملاءات طغاة النفس الجدد. إن مَلَكَة الفكر الاستنباطي في صاحب الفكر الإنساني، وهو العقلاني الاستنباطي قبل أي شيء، هي في موقف متماثل تمامًا لـ «الملك الدستوري».

من ناحية أخرى، إذا كان الدين، ممثلًا للعقل، يتطلب أن الإنسان سيتقبل سلطته على كل ما يقع خارج مجال الفكر الاستنباطي، فإنه لن

يتطلب أن يتقبل {الإنسان} ما هو ضد الفكر الاستنباطي. على العكس، فإن الاتهامات الموجهة من الإنساني لا تستحق الفحص. على سبيل المثال، إن السبب النموذجي الذي تتَدرع به العقلانية الاستدلالية بأنه لا يمكن لأي إنسان ذي فكر استدلالي أن يعتقد في الأديان لاختلافها في الرأي، هو ببساطة سبب خاطئ جزئيًّا؛ لأن كل الأديان متفقة على ما هو حقًّا جوهري، أو بعبارة أخرى توافقهم في الروحانيات؛ وتدرع العقل الاستنباطي خاطئ جزئيًّا؛ لأنه نظرًا للاختلافات الشاسعة بين إحدى التجمعات الإنسانية والأخرى، فإنه سيكون غريبًا في الواقع إذا فرضت العناية الإلهيّة نفس الشكل الديني بالتمام والكمال عليهم جميعًا.

بعيدًا عن كونه غير منطقي، الدين يعطي الإنسان دائمًا كل ما يمكن إعطاؤه من مبررات منطقية للاعتقاد، أي ليس إثبات ما هو مستحيل إخضاعه للدليل المنطقي، ولكن «براهين» قويةً للغاية من أنواع مختلفة، كُلّية وخاصة؛ والفكر الاستنباطي مدعو ليتوَّج في وقار، مع الخيال والمَلَكات المرؤوسة والخادمة له، وليعطي هذه البراهين اعتبارها الكامل تمامًا والأكثر تحررًا. أحد تلك البراهين التي يجب على كل دين أن يقدمها هي روعة وجدارة مؤسسه لسمو ومجد وظيفته. من البداية، يخون دين زائف نفسه، في ذات الموضوع، بنبيّ كاذب مثير للدهشة والاستنكار بشخصه العادي الذي لا امتياز له. على العكس، أعلى درجات عظمة الرسول الإلهيّ هي كون غيابه عن التاريخ كان سيترك فراغًا متسعًا لا يحتمل؛ وهذه العظمة، بأثرها الواسع والعميق الذي لا يزول على الإنسانية، تتحدى وتقاوم الذهن لشرحها بطريقة أخرى، غير

تلك التي تسمح أن الإنسان المشار إليه، هو في الواقع كل ما ادعاه. إلى جانب مؤسسها، كل دين حق له أيضًا حجة أنواره الأقل درجةً، رجال ونساء، لذكر قلة منهم فقط، في قامة القديس أوغسطينوس، والقديس برنارد، والقديس فرنسيس، والقديس دومينيك، والقديسة كاترين السينائية والقديسة تريزا من أفيلا. اليقين الجماعي لمثل هؤلاء العمالقة، {هو} يقين متعالٍ لانهائيٍّ على الاعتقاد المَحْض، هو حجة لا يربأ أي فكر استنباطي ملكي حقيقي بنفسه عن التفكير مَليًّا فيها. أما فيما يخص حججًا من نوع آخر، مثال ينطبق بالأخص على المسيحية، هو معجزة علامات تُشْبه آثار جروح المسيح التي، منذ زمن القديس فرانسيس، حدثت في كل جيل من أجيال المسيحيين، لواحد أو اثنين من الرجال والنساء القديسين حتى يومنا هذا. «انتحال الأعذار» الإنسانية لهذه الأنواع المختلفة من البراهين هي دائمًا نوع من الإهانة للفكر الاستنباطي؛ والإنسانية عامةً تُقْنِع الفكر الاستنباطي لغض النظر عن عامل هام إلى الأبد: على سبيل المثال، شروحات المفكر النشوئي لأصل الكون، مع تغاضيه عن مشاكل أصل الحياة والمادة، هي دون العقل أو الفكر تمامًا مثل الشروحات «السيكولوچية» لأصول الدين.

بالتعريف، صاحب الفكر الاستنباطي يفكر في بعدين فقط؛ لأن ذهنه «حرّ»، كونه قد «تحرر من قيود الخرافات»، وهذه القيود، التي تربط الفكر الاستنباطي بالعقل، هي ما تصنع البعد الثالث للنفس. ومن ثَمَّ عبادة لمفاهيم كثيرة لديها في نفسها، إذا جاز التعبير، بُعدان فقط، مثل الإحصاء على سبيل المثال، العزيزة جدًّا على العالم الحديث؛

ومن بين خبراء الفكر ثنائي الأبعاد، يجب الأخذ في الاعتبار كثير من ممثلي ما يُسمَّى «التعليم الأعلى». مما يدعو إلى السخرية، أن هذا اللفظ يستخدم اليوم بالتحديد عند تخطي زيادة المعلومات نقطة معيّنة لتكون، كما لم تعد، «بالتضاعف»، أي بمنح النبل على الطول والعرض ببعد الارتفاع، لكن «بالقسمة»، أي تقسيم إلى أجزاء أصغر وأصغر إلى ما لا نهاية له لسطح ما، وذلك إلى أجزاء منفصلة ودقيقة بزيادة متواصلة في تراكم عددي لوقائع لا قيمة لها غابت عن انتباه –وكذلك اهتمام– أجيال سابقة.

تبعًا إلى رمزية الشجرة والتي هي كصورة للكون، الفلك الصغير علاوةً على الفلك الأكبر، تظهر في مذاهب كل الأديان تقريبًا، الروح هي جِذْر النفس، والفكر الاستنباطي هو جذعها[٣٩] والمَلَكات الأخرى هي فروعها وأوراقها. الحركة الطاردة المركزية التي تخضع لها الخليقة، والتي تعني تقليلًا تدريجيًّا للاتصال مع الروح، يمكن إذَنْ أن توصف كضيق دائم الازدياد في القنوات التي تسري فيها العصارة من الجذر إلى الجذع، والمذهب العقلي هو شكل متفاقم على الأخص لهذا الضيق. إضافةً إلى ذلك، ليس «للعصارة» مظهر عقلاني فقط، لكن مظهر حيوي أيضًا، والتي تعني أن النفوس الإنسانية لا تميل فقط إلى أن يتواصل ازدياد تفكك ربط غزلها ببعضها من خلال ضعف العصب الذي يربطهم معًا، ولكن أيضًا بزيادة متواصلة في وقف نموها الطبيعي من خلال كونها

(٣٩) بالتماثل القياسي، في علوم الهندسة المعمارية في العصور الوسطى «تبعًا لبعض الآباء، قدس الأقداس (في كنيسة) هو صورة من الروح، بينما صحن الكنيسة هو صورة للفكر الاستنباطي».
(Titus Burckhardt, *Principes et Méthodes de l’Art Sacré*, p. 70, Derain, Lyon, 1958)

محرومةً من الغذاء القويم. بدون شك، إن ذلك يشرح جزئيًّا أحد الفروق بين الديانات الأولى والمتأخرة؛ لأنه بينما تتساوى الأديان بالضرورة فيما يخص ما هو أساسي، أي فيما يخص الاحتياج الجوهري للاتحاد بالروح، كونها كلها متفتحةً لا نهائيًّا في اتجاه لأعلى، فيمكن ملاحظة أنه بالنسبة للأشياء غير الجوهرية، على سبيل المثال تسمح اليهودية والمسيحية والإسلام برؤية «أفقية» أقل بكثير في الاتساع عمَّا تسمح به الهندوسية. إنها كما لو كانت الإنسانية قد أُرشدت إلى وادٍ أضيق عمَّا قبل، بنفس الفتحة الرأسية الموجودة بأعلى، ولكن بفرص أقل للإلهاء من جانب لآخر. إلا أننا موعودون بأنه، في أي حالة، سيتضح كل شيء في العالم الآخر؛ وإذا كان ذلك في المعتاد كافيًا فيما سبق لمعظم من هم موجَّه لهم هذا الوعد، كان ذلك بسبب أنهم وضعوا الأكثر أهميةً أعلى من الأقل أهميةً، بإحساس من التناسب الذي أجبرتهم عليه الحالة الطارئة التي رأوا فيها أنفسهم. إن إنسان واعٍ تمامًا بمرضه بمرض خطير، وموعود بشفاء تام، لن يهتم كثيرًا بأسباب إصابته بمرضه الخطير؛ ولا يحتاج إنسان يستعد لرحلة بلا عودة أن يعرف كثيرًا عن البلد الذي يتركها. بلا شك أن السماع عن حقائق أقل شأنًا تسمح في بعض الأحيان أن تُلهي النفس عن الحقائق الأعظم.

ولكن اليوم، مثل هذا الضرر الذي حدث في العصور الوسطى بسبب حقائق أقل شأنًا، فإنه اليوم قد حدث فعلًا ألف مرة بإلهاءات أخرى لا تتوافق مع أي حقيقة. مشهد الكوزمولوجيا (فرع من الميتافيزيقا يعتبر العالم كُلًّا مُنَظمًا) الهائل للأديان الأوّلية يصبح إذَنْ غير ضار نسبيًّا مرةً

أخرى – حقًّا إن «النقيضين يتلاقيان». علاوةً على ذلك، مثل هذا المشهد مؤهل بامتياز ليتلاقى مع الإلهاء على أرضه، إذا جاز القول، ويرد على بعض من هذه الأسئلة التي تميل العقول الناشطة الآن لتسألها عن الدين، بينما هي في نفسها تظل دائمًا، على أقل تقدير كامنةً، كما كانت في البداية دعمًا قويًّا للتأمل في اللا–متناهي.

تبعًا للمذاهب الهندوسية، دورة العصور الأربعة التي تقترب الآن من نهايتها قد سبقها العديد من مثل هذه الدورات، وسيتبعها دورات أخرى كثيرة. ومع ذلك، لكل {دورة} أَمَدُها في الزمن التي كما يبدو أنها لا تنتهي، ولكل امتدادها المكانيّ الضخم، الكون الذي نعيش فيه هو ببساطة واحد من عدد لا يُحصى من العوالم المتعاقبة التي من خلالها تكون الكيانات عُرضةً للعبور، مهاجرة من عالم لآخر على حافة عجلة السامسارا **samsāra** العظيمة، التي هي عبارة عن دورة كاملة من الحالات المختلفة للوجود الفردي؛ والسامسارا **samsāra** التي يقع عالمنا على محيطها، إذا جاز التعبير، نقطة واحدة ولحظة واحدة وهي في حد ذاتها ببساطة واحدة من سامسارات **samsāras** لا تُعد ولا تُحصى، كل منها ومضة واحدة من التجلي الإلهيّ.

إن وضع الكينونة في أي عالم يتحدد بجدارتها أو سيئاتها المتراكمة في حالتها السابقة. إن «المرغوب فيه بشدة» و«الصعب الحصول عليه» هو وضع مركزي؛ لأنه كعضو من الفصيلة المركزية فقط، وفي هذا العالم هذه الفصيلة هي الإنسانية، يكون لدى الكينونة إمكانية الهروب من تقلبات السامسارا **samsāra** والعبور، إذا جاز التعبير، من محيط

{الدائرة} على طوال نصف القطر إلى المركز الإلهيّ. اتخاذ هذا الاتجاه هو أخذ «طريق الآلهة» المضاد «لطريق الأجداد» الذي يعني العبور من عالم سامساري لآخر.

حقيقة السامسارا samsāra، في حالاتها قبل الدنيوية، مُعَبَر عنها جزئيًّا في مذهب الخطيئة الأولى، الذي يفيد ويختص ويؤكد على الواقع الجوهري بكونِ الإنسان لا يولد في هذا العالم في حالة من البراءة. نفس الحقيقة متضمنة في المذهب الإسلامي بأن إحساس كل إنسان بالمسؤولية يبدأ عندما خُلِقَ كبذرة في صُلب آدم، ولم يُخلَق مجردًا بعد ولادته في هذا العالم.

بالنسبة للهندوسي، مذهب الخطيئة الأولى هو (مذهب) لا يحتاج إلي برهان: الولادة في هذا العالم تعني النقص بالضرورة، إلّا في حالة الرسل الإلهيين؛ لأن الكينونة التي وصلت إلى الكمال في حالة قبل دنيوية، ستكون نتيجةً لهذا قد هربت من السامسارا samsāra على وجه الإجمال. ومع ذلك، رأى أجدادنا، دون أن يتقاسموا هذا المنظور، أن مذهب الخطيئة الأولى {الأصلية}، أي مذهب {الذي ينص على} إن المواليد لم يعودوا يولدون في هذا العالم كقديسين، يتطابق مع واقع واضح؛ وحقًّا هذا الواقع يمكن فقط أن يثير تساؤلًا في مجتمع قد فقد كل إحساس بالقدوة الإنسانية المثالية – مجتمع لم تعد الفضيلة، بالنسبة له، مطلوبًا منها أن تكون في أحسن صورها، تَذكِرة برّاقة للطبيعة الإلهيّة التي تعكسها، ولكنها ببساطة تُقَدَر تبعًا لفائدتها للمجتمع، بينما «من هو بلا خطيئة» لا تعني أكثر من «عدم فعل أو نيّة أي أذى».

حالات السامسارا **samsāra** فيما بعد الحياة الدنيوية {بعد الموت} متضمنة فيما تعلمه الأديان التي أتت بعد ذلك، عن الليمبو[٤٠] **limbo** {مكان أرواح الصالحين قبل مجيء السيد المسيح الثاني}، وأيضًا عن جهنم التي تتوافق مع تتابع الإقامات الجهنمية التي تصوّرها الهندوسية والبوذية في أدنى أقسام العجلة السامسارية **samsaric wheel**.

غني عن القول، أن هذه المقارنات القليلة الموجزة لا تدّعي أنها تنصف أي منظور من الأديان المعنية. وكذلك هم على أقل استعداد لشرح أعمال العناية الإلهيّة. ولكن فيما يخص استعداد العناية الإلهيّة أن تنصف نفسها؛ لأنها قد حجبت حقائق أدنى معينةً «أفقيةً» عن قطاع من البشر قبيل نهاية هذه الدورة وعن سعيها لتركيز كل طاقات الإنسان المتضائلة في اتجاه «رأسي»، لا يمكن إيجاد تبرير أكثر بلاغة عمَّا يبرهن به تاريخ العالم الغربي في المئتين أو الثلاثمائة عام الأخيرة.

كثيرًا ما يقال إن ما حدث كان رد فعل، وإن اللوم يقع على الدين، ولكن ذلك يناقش رؤيةً ضيقةً جدًّا للتاريخ. وجهة النظر «الأفقية» المسطحة التي عرفت فيما بعد بالإنسانية كانت متفشيةً بالفعل في الغرب قبل-المسيحية، وتكاد تكون مدفوعةً على كل فنون شمال البحر المتوسط في الألفَي عام الماضية وأكثر. الحضارة الحديثة ليست مجرد سكرة موت الحضارة المسيحية. هي أيضًا استطالة لسكرة موت الحضارة اليونانية-الرومانية التي، قد قُوطعت بالمسيحية، وولدت من جديد في

---

(٤٠) لهذا الموضوع انظر كتاب فريثچوف شيون، Frithjoff Schuon, *Études Traditionelles*, 1962, p. 133, note 2.

عصر النهضة. منذ ذلك الحين أعاد العالم الغربي إظهار نزعته، «بانتقام» إذا أراد أحد أن يقولها بهذا التعبير، في أن ينشغل عن الحقائق الكونية الكبرى بما يُسمِّيه «واقعيةً»، أي وقائع ثنائية الأبعاد، وغالبًا تكون ماديةً.

الدائرة هي دائرة مفرغة، بما أن «الحرية» -أي- أن درجةً معينةً من الانشغال {الإلهاء} الكامل المتحقق، تنعم على الذهن برشاقة حركة لم يكن يمتلكها في الماضي(٤١)، وهذه الرشاقة تفتح إمكانيةً أكثر للإلهاء. سهولة السفر دائمة التزايد في العالم الحديث هي صورة خارجية للباقة الذهن المتزايدة وسطحية تحركاته. بالرغم من كل فخامة الكلمات، فإنَّ ما يُسمَّى بـ «إثراء المنظور الثقافي للإنسان»، أو «تعريض الرؤية»، أو «توسيع الأفق العقلاني»، كلها لا تحمل أي علاقة بتلك النبالة –حرفيًّا «عظمة النفس»– التي هي سمة جوهرية للأرستقراطي الحقيقي. إذا استمر شد قطعة بلاستيكية في ذلك الاتجاه والاتجاه الآخر لزيادة طولها وعرضها، فإن بُعدها الثالث سينخفض إلى الحد الأدنى. إن «الذهن الواسع» للإنساني {صاحب الثقافة الإنسانية **humanist**} هو ببساطة ذهن ضيق تم تسطيحه.

لكن، أليس في الإمكانية زيادة المادة النفسية في مجملها؟ الإجابة على هذا السؤال متضمنة مسبقًا في صورة الشجرة؛ لأن الشجرة لا يمكن

(٤١) لا يمكن أن يكون هناك شك في أن البشر كان يفكرون بطريقة أبطأ في الماضي، فيما عدا ما يخص الاستنارة الملهمة المفاجئة، ومضات البرق في النفس، التي تفترض مسبقًا بعض التأثيرات من العقل. بالتعريف، إن الإنساني، {صاحب الثقافة الإنسانية} humanist، على ما هو عليه لا يدع مجالًا لهذه التأثيرات، ولن يكون خطأً أن نقول إنه فضَّل، بدلًا منها، أن يخترع البارود والكهرباء وما شابه ذلك.

أن تنمو بشد أفرعها، ونفس الشيء بالنسبة للنفس، فلا يمكن لمادتها أن تستقبل أي زيادة إلّا من جذرها الروحي فقط، وإذا أعطت ممارسات الطقوس المناسِبة جذر الشجرة ما تحتاجه من غذاء، لن يستمر تشجيع النمو فقط، بل سيُجعَل أكثر كمالًا عن طريق فن تقليم أغصان الأشجار، أي بما يفرضه أو يوصي به الدين من إحجامات وتضحيات.

«لكي يأخذ الإنسان، فإنه بالتأكيد سيعطي أولًا»(٤٢).

إن مذهب الأفعال وردود الأفعال المتناسقة الذي يشدد على أهميته على الأخص كل من الطاوية **Taoism** والبوذية، له أهمية عالمية إلى حد كبير حتى يمكن اعتباره كأساس كل الممارسات الدينية. كل فعل ينتج رد فعل، كما هو الحال مع أمواج البحر، أيضًا إذا استطعنا جعل «موجة» تتدفق من هذا العالم إلى العالم الآخر {التالي}، فإنه سيكون هناك حتمًا جَزر من العالم التالي، والطقوس الدينية الموضوعة هي تعليمات العناية الإلهيّة للإنسان للطريقة الأفضل التي يمكنه بها إطلاق حركة هذه الأمواج. عدم التكافؤ بين الفعل الإنساني ورد الفعل الإلهي ضخم للغاية لدرجة أنه يجب تخزين(٤٣) رد الفعل للنفس في خزانات العالم التالي، بما يسمح بفيض بقدر ما تستطيع النفس أن تستقبله في هذه الحياة.

إن موضوع الاستجابة يمس الفرق بين الباطنية، التي هي في حد ذاتها طبيعية ولكنها أصبحت غير طبيعية، وبين الظاهرية {الخارجية}،

---

(٤٢) Tao Te Ching, ch. XXXVI.

(٤٣) فيما يخص المذهب الهندوسي «لردود الفعل المتأخرة»، انظر كتاب René Guenon, Introduction to the Study of the Hindu Doctrines, pp. 273-276 (Luzac & Co., 1945).

التي هي في حد ذاتها غير طبيعية {غير معيارية}، ولكنها أصبحت طبيعيةً {عاديةً} بما أن أغلب الأنفس محتجزة في قبضة العصر الحديدي، هذه القبضة ما هي إلّا قيود السجناء في الكهف الموجود تحت سطح الأرض. الرؤية الباطنية تنتمي في هذا العصر لمن هم بمقياس ما ارتدادات عصر سابق، الذي يعني انفكاكًا نسبيًّا لقيودهم، وطعمًا مسبقًا للحرية. لكن القيود بالنسبة للأغلبية مؤمنة تمامًا بما لا يُسمَح لهم بمثل هذا الطعم المسبق إلى حد أنهم لا يطمحون حتى في الهروب في هذه الحياة. إذا أمكننا استعارة صورة أفلاطون عن حالتنا الحاضرة لتوضيح تعاليم الهندوسية وديانات أخرى، يمكن أن يقال إنه بما أن كل طقس مشروط بالطموح الذي يناسبه، فأداء طقس هو في أغلب الأحيان فعل رد فعله المنسوب إلى العناية الإلهيّة مؤجل حتى لحظة الموت الكبرى، عندما تكسر القيود فجأةً. في هذه اللحظة يمكن لردود الفعل المكنزة التدخل بإعطاء السجين قوةً دافعةً تمكنه من الصعود لفتحة الكهف والهروب منه، متخذًا بذلك «مسار الآلهة». هذا الصعود حتى فتحة الكهف يقابل في المذهب المسيحي – مستخدمين مشهد دانتي– صعود جبل المطهر. لكن من دون الأداء المناسب للطقوس، أي من دون أن تكون قد حُشِدَت القوة اللازمة الدافعة لأعلى، لن يستطيع السجين غير المُقَيّد إلَّا أن يأخذ «مسار الأجداد»، وبناءً عليه أقصى ما يمكن أن يأمله سيكون أن يتابع سيره «أفقيًّا» في يمبوس (موضع النسيان، متوسط أو انتقالي للنفوس) مجاور «لكهف تحت سطح الأرض»؛ ولكن إذا استُبعِدَت الحوائط المحيطة عند الموت، والأرضية من تحت الأقدام، والأديان في اتفاق،

تحت الصياغات المتباينة، هذا الفشل خلال هذه الحياة، في استغلال امتياز أن نكون بشرًا آدميين –هذا الامتياز هو «الوزنة» التي أُودعت مع كل خادم في مثال السيد المسيح– لا يمكنه أن يمنح أي قوة دافعة إلا قوةً انحداريةً، واتخاذ هذا المكان الجانبي «المحايد» هو في الواقع نادر جدًّا. «من ليس معي فهو ضدي»؛ وما كان الموقف المحايد اعترافًا بفضل الخادم الذي أعاد الوزنة الواحدة، لا أكثر ولا أقل، المودعة لديه.

الهروب من الكهف لأعلى إلى العالم الخارجي بعد الموت هو الخلاص بالمعنى العام المقبول للكلمة، بينما الباطنية معناها أنه بالفعل في هذه الحياة هناك قوة دافعة لأعلى– أو حرفيًّا قوة دافعة داخلية، التي هي رمزيًّا نفس الشيء؛ وهذه القوة الدافعة هي الطموح إلى «النمو». إنها تفترض مسبقًا معرفةً عمَّا هو نمو النفس بالكامل؛ وهذه المعرفة، التي يشارك فيها الظاهري {الخارجي} بدرجة أقل، يمكن تقويتها وزيادة تركيزها بالتأمل المركز على النماذج الأصلية للنبل. على سبيل المثال، في التصوّف المسيحي والإسلامي، الدعم الخاص لهذا التركيز بكلّ منهم على حِدَة هو صلاة (السلام لكِ يا مرْيم) عند المسيحيين (وأدعية الصلوات والسلام) على الرسول. شرط ثانٍ لا تشارك فيه الظاهرية، هو أن النموذج الأصلي {الأولي} لا يجب أن يكون مجرد مثال عن بُعد، لكن يجب أن يوقظ صدى شخصيًّا في النفس، إنه إحساس بإمكانية التوافق الفعلي معه، أي إحساس بـ «الانفكاك النسبي لقيودهم».

إن نمو النفس هو عملية انكماش وتَمَدُّد متناوبة. من هذه الزاوية، فإنه يمكن وصف أداء طقس ما بأنه انكماش لحظي «طولًا» و«عرضًا»

للنفس حتى يزيد «ارتفاعها»، مع المعرفة أن التَمَدُّد الناتج سيترك الثلاثة أبعادًا أكبر عمَّا كانوا عليه قبل ذلك– قاعدة أعرض تنطلق منها موجة طموح أقوى.

إن أساس كل حياة روحانية هو الأداء المنتظم للطقوس، وهو وحده الذي يمكنه أن يوجِد مدًّا وجَزْرًا إيقاعيًّا منتظمًا بين العالمين؛ لأنه بالحفاظ على «جيئَة وذهابًا» أبدية في القناة بين النفس والروح، بين الذهن والعقل، يمكن فقط لهذه القناة أن تتحرر مرةً أخرى من كل العقبات.

* * *

الفصل السادس

قد يَتَلاقى النَّقِيضان

النزعات السلبية التي كانت تعمل في الغرب لمئات السنين القليلة الأخيرة قد أُبرِزَت، بطريقة ملموسة وبسرعة متزايدة دائمًا، منذ بداية هذا القرن. أيضًا منذ ذلك الوقت، انتشرت هذه النزعات بزيادة متواصلة السرعة على كل وجه الأرض. لكن أحد الاختلافات بين ذلك الحين والآن هو أن وجهة النظر المسؤولة عن هذه النزعات، والتي بدا عليها أنها واثقة من نفسها تمامًا، تظهر علامات التردد. لم يمنع ذلك الناس من الاستمرار في التحرك في نفس الاتجاه كما سبق تمامًا، ونظرًا لأنهم كلما تقدموا في مسارهم أصبح الموقف أسوأ؛ لكنهم الآن يبدأون في التحرك مثل الإنسان الآلي الذي لا حول له ولا قوة، بدلًا من كونهم متحمسين شديدي الرغبة، وبلا شك في أن الهروب من النظرة العامة أصبح أسهل على الأفراد عما كان عليه. بدأت الشقوق تتسع في حوائط صرح العالم الحديث والتي لم تكن هناك من قبل، وهذه الشقوق تعطي سبيلًا لوجهة نظر تمثل العكس تمامًا لكل ما يدافع عنه العالم الحديث.

يوجد مؤشرات كثيرة تفيد أن العصر الحالي أشرف على نهايته -نهاية ستكون في حد ذاتها الالتقاء العظيم لنقيضين- ومن بين «علامات الساعة» هو التقاء لنقيضين أصغر نقابلهما في كل مجال تقريبًا. مثال لافت للنظر عن التضارب الملموس في العصر الذي نعيشه هو أن العالم بالتأكيد لم تتفشَّ فيه الأديان-الزائفة والهرطقة مثلما يحدث اليوم، ورغم هذا حينما أصبح الضلال بلا شك أسهل عمَّا كان عليه قبل ذلك، لكنه في نفس الوقت من الأسهل رؤية أين يقع الدين الحقيقي بالضبط، من بين كل ما يُسمَّى «دينًا». وراء السطحية العقيمة للبابية والبهائية، والعلم المسيحي، والثيوصوفية وعلم طبائع البشر، وجماعة التسلح المعنوي **Moral Rearmament** والسوبود (حركة روحانية دولية نشأت في إندونيسيا في عام ١٩٢٠) **Subud** - لذكر بعض من هذه السلالة - تعتلي هناك ديانات العالم العظيمة -ولا داعي لذكر أسمائهم- كل منهم مثل سلسلة من الجبال بقممها المغطاة بثلوج القداسة. في الخلفية أيضًا، تلوح هنا وهناك قمم ضخمة غير واضحة المعالم لدين أوليّ أكثر قدمًا، كان يجب أن يُستبدل أو يُعاد تأكيده؛ لأن تابعيه -وقد ابتعدوا عنه- قد تناسوه. أما فيما يتعلق بدين جديد الآن، فإنه لا يوجد متسع له في العالم كله؛ لأنه لم يعد هناك ناس في حالة مشابهة في دولة لمن كانوا قبل-المسيحية من يونانيين، ورومان، وألمان، أو لمن كانوا قبل الإسلام من عرب وفرس ومن هم ليسوا بهندوس في الهند. الآن كل مجتمع في العالم يمكن له التواصل بسهولة جغرافيًّا ونفسيًّا مع دين(٤٤)

---

(٤٤) ويكرز ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادة لجميع الأمم، ثم يأتي المنتهى». مت: ٢٤. ١٤.

واحد حقيقي على الأقل، صالح وعلى حالته الأصلية قد بقي بالرغم من الهرطقة التي قد تكون نمت حوله، وبالتالي فإنه من الصعب بالفعل تصوّر دين إضافي يُوحى به من الآن وحتى نهاية الدورة. بدلًا عن ذلك، فإن الأديان الموجودة حاليًا، إذا جاز التعبير، تم تجديدها وإعادة تأكيدها في وقت عوز شديد بإعطائها معرفةً موضوعيةً عن بعضهم بعضًا مثلما لم يعرفوها من قبل أبدًا.

لا حاجة إلى قول أن أجدادنا كانوا على علم بوجود ديانات أخرى بجانب ديانتهم؛ لكن كونهم منبهري البصر ومخترقين بالنور اللامع العظيم الذي يشع مباشرةً من فوقهم، فإن رؤية أضواء لامعة غير مباشرة وبعيدة -بالنسبة لهم- على الأفق كان لا يمكن لها أن تثير اهتمامًا إيجابيًّا، ولا كانت تتسبب في مشاكل. لكن اليوم هذه الآفاق لم تَعُدْ بعيدةً؛ وفي وسط الشر العظيم الذي ينتج من كل ما ساهم في تقريبهم، حتمًا بعض الخير قد وجد مدخلًا أيضًا.

حقًّا إن كثيرًا من -إن لم يكن معظم- الاهتمام الحديث بأديان أخرى أو التسامح معهم، بعيدًا عن أنها مبنية على التفاهم المشترك، هي مجرد نتيجة فضول أكاديمي أو تبلد الإحساس الديني ممزوجًا مع «خرافة الحرية». مع ذلك، على سبيل المثال يوجد بعض من المسيحيين الأتقياء الذين يحتاجون أن يعرفوا، وإيمانهم المسيحي يقوى كثيرًا بهذه المعرفة، أن البوذية دين مثل المسيحية، وأنه قد خدم لأكثر من الألفي عام الأخيرة، الاحتياجات الروحانية لملايين الأسيويين بطريقة من المفترض أنها أفضل كثيرًا، عمّا كانت قد فعلته المسيحية. إنهم يحتاجون أن يعرفوا ذلك لأن التفكير بطريقة أخرى، في حين أن درايتهم العقلية الحالية الثاقبة

بديانات أخرى، هو التفكير بالسوء في العناية الإلهيّة، وبالتالي في النهاية التفكير بالسوء في المسيحية التي تعتمد كليًّا في مجدها على مجد الله. وعلى وجه التعميم، يحتاجون أن يعرفوا، قبل أن تستقر نفوسهم في أي دين واحد، أن الاسم الإلهيّ «الرحمن» ليس بكلمة فارغة، وأن الله لم «يختر» مجرد شعب واحد أو مجموعةً من الشعوب؛ وعلى الرغم من أن هذه الحقيقة لم تحجب أبدًا عن الذين احتاجوا أن يروها، فإنها في الغالب الآن سهلة المنال أكثر من أي وقت آخر مضى.

من الأحداث الهامة أن بابا الكنيسة في عصرنا، وليس في أي عصر آخر، هو الذي قال لمفوّض له وهو يرسله إلى دولة إسلامية: «لا تظن أنك ذاهب إلى وسط غير مؤمنين. المسلمون يبلغون الخلاص. إن طرق الله غير متناهية»(٤٥).

بالنسبة لبعض الناس الذين فقدوا أو شبه فقدوا دينهم، يوجد أو يمكن أن يُوجد، طريق للعودة إليه من خلال معاونة ديانات أخرى، حيث إن كثيرًا ما يكون النظر بموضوعية إلى تلك الديانات أسهل ومن دون محاباة؛ والذي يستطيع أن يكوّن فكرةً واضحةً عن ماهيّة الأرثوذكسية في أي من أحد الأديان هو مؤهل ليرى المكان الذي تقع فيه نظيرتها في كل الأديان، بما فيها دينه؛ لأن للأرثوذكسية وجهةً عامةً بالإضافة إلى وجهة خاصة. فيما يخص الأوجه الخاصة، فإنه ليس من السهل دائمًا رؤية

(٤٥) هذه الكلمات ائتمن البابا بيوس Pope Pius الحادي عشر، الكاردينال فاتشينيتي Cardinal Facchinetti عليها عند تعيينه مفوَّضًا رسوليًّا إلى ليبيا، أُفصح عنها للعامة فقط في العشرة أعوام الأخيرة (in *L'Ultima*, Anno VIII, 75-76, p. 261, Florence, 1954).

تطابق[٤٦] الأشكال المختلفة من العبادة، لكن الأرثوذكسية في أوجهها الأكثر عموميةً هي دائمًا نفس {الشيء} في الأساس، وأحد خواصها البيّنة توًّا وفي نفس الوقت بعيدة الأثر هي الغزارة، التي بها تُوفِّي كل احتياجات الإنسان الدينية في كل مجال وعلى مختلف مستويات المؤهلات الروحانية. هنا يقع أحد الأسباب الرئيسة لعدم إمكانية أي فرد أن يفترض ممارسة أكثر من دين واحد؛ لأن كون كل دين «كاثوليكيًّا»، أي كونه في حد ذاته جامع بكُليّتِهِ، يتطلب ولاءً كاملًا لا يترك أي جزء من الإنسان ليتمسك بأي شيء آخر.

المفهوم الإسلامي لجامعية المذهب القويم {الأرثوذكسية} هو مفهوم خاصّ بوضوح، وإذا تركنا ما يخص الإسلام وحده جانبًا، يمكننا أن نستخلص تعريفًا عامًّا يمكن صياغته في الكلمات التالية: الدين وحيّ إلهيّ ثلاثي: أولًا لديه مذهب عمَّا يجب أو ما لا يجب الإيمان به فيما يخص الحقيقة المطلقة اللا-متناهية والأبدية في حد ذاتها وأيضًا فيما يخص الكون، أي النسبي والمحدود والزائل، مع إشارة خاصة للإنسان. ثانيًا، لديه قانون لما يجب أو لا يجب عمله، والوجْهة الموجبة من القانون تتضمن شكلًا من العبادة ذا سعة كافية وتنوع ليضمّ وينفذ في حياة كل التابعين للدين. ثالثًا، لديه تصوّف أو باطنية تسمح بالفرق المتسع للهبات الروحانية بين الناس. الإيمان بالمذهب وطاعة القانون ملزمة للجميع؛ لأنهما وسيلتا الخلاص. الوجْهة الصوفية للدين، الملزمة فقط

(٤٦) كل ديانة لها على الأقل عنصر متعال واحد، نزول للإلهي إلى مستوى الإنساني، ولكن هذا العنصر يمكنه أخذ أشكال مختلفة تمامًا. كما أن الهرطقة الكبرى في المسيحية هي إنكار أُلُوهيّة أن «الكلمة أصبحت جسدًا» وإنكار امتداد تلك الأُلوهيّة في سرِّ الأفخارستيا {العشاء المقدس}، أيضًا الهرطقة الكبرى في الإسلام هي إنكار أبدية القرآن، «الكلمة أصبحت كتابًا».

لهؤلاء الذين لديهم مؤهلات معيّنة، هي بُعد إضافي للإيمان والعبادة؛ لأنها تعني ضمنيًّا قبضةً شاملةً ونافذةً للمذهب، وإخلاصًا وتركيزًا عميقًا في ممارسة الطقوس. إنها تقدم ما يأتي بعد الخلاص، إمكانية التقديس، حتى في هذه الحياة، وفيما بعد ذلك إمكانية الوصول إلى الله نفسه.

من الواضح أن المفهوم الإسلامي الثلاثي لجامعية المذهب القويم {الأرثوذكسية}، المعبر عنه بهذه العبارات العامة، هو مفهوم عالمي أكثر مما ينبغي ألَّا يطبق على كل الديانات الأخرى أيضًا؛ لأنه يطابق وقائع إنسانيةً لا تُنكَر. أي مجال أقل اتساعًا من ذلك لا يستطيع أن يلبي الاحتياجات الروحانية لأي قسم عنصري أو جغرافي من الجنس البشري كما هو الآن، وكما كانت عليه خلال «الأزمنة» التاريخية(٤٧)؛ وعلى الرغم من إن التعريف المذكور أعلاه لا يمس أوجهًا أرثوذكسيةً معيّنةً، التي تجعل كل دين يؤخذ على حدة، مع ذلك فهي تمكننا من القاء نظرة خاطفة دون دخول في أسئلة تفصيلية، على سبيل المثال، عن أي من الكنائس المسيحية ظلت معفاة من التجريدات التي هي الخاصية الرئيسة للهرطقة(٤٨)، وهي تجريدات طقوسية ومذهبية تصل إلى استبعاد

---

(٤٧) فقط في عهود كان التصوّف فيها نموذجًا معياريًّا، كان يمكن أن يقال إن الدين ثنائي، يتكون ببساطة من مذهب وعبادة.

(٤٨) فيما يخص التجريدات المستهجنة المتنوعة التي حدثت للكاثوليكية الرومانية منذ مجلس الفاتيكان الثاني – تجريدات تمت مقاومتها عن طريق قلة مؤمنة وفيّة – فإنه من الكافي اعلان الوقائع المدهشة كما هي. إحدى هذه الوقائع هي أن رؤساء الكنيسة قرروا فجأةً أن يُلغى ويُمنع استخدام الطقوس الكنسية {القداس} التي تربى عليها كل عضو من أعضاء الكنيسة، والتي بالتالي كانت أساس الحياة الروحانية لملايين الرجال والنساء. لا داعي للتعليق. لكن هؤلاء الذين يرغبون في أن يطلعوا على وقائع أخرى وكيفية حدوثها، يجب أن يراجعوا كتاب *The Destruction of the Christian Tradition*, by Rama P. Coomaraswamy (Perenial Books, London, 1980).

انظر أيضًا ملحق ١.

التصوّف بأكمله، كون التصوّف إثراءً أو نبلًا للطقوس، والمذهب بهذا المعنى هو النقيض للهرطقة. نفس الحقيقة يمكن أن يُعَبّر عنها بقول إن التصوّف يقبل بملء الفهم كل ما ترفضه الهرطقة بسبب قلة الفهم.

يمكن مقارنة الأديان في هيئاتهم الخارجية بنقط مختلفة على محيط دائرة، وفي طرقهم الباطنية أو الصوفية بأنصاف أقطار تقود من هذه النقاط إلى المركز الواحد الذي يمثل الحقيقة الإلهيّة. هذه المقارنة تبيّن {الهيئة} الخارجية (التعليم الخارجي الذي يمكن للعامة أن تفهمه) **exoterism** كنقطة البداية اللازمة للتصوّف، وتُظهر أيضًا أنه بينما قد تكون مختلف الأوجه الخارجية بعيدةً عن بعضها نسبيًّا، فإن كل {الطرق} الصوفيّة في تقارب يتزايد باستمرار، ومتطابقة جوهريًّا ومتلاقية في نفس النقطة.

دائمًا ما تمَكَّن الإنسان من التوصّل إلى الشهادة، ليس من المؤمنين بالحقيقة الإلهيّة فقط، لكن من شهود عيان لها، تحديدًا القديسين في ديانتهم المعيّنة. لكن الآن، إذا جاز التعبير، لتعويض مذهب الشك العام، أصبحت هذه الشهادة بالمطلق، وبالأبدي، وباللا-متناهي من خلال تجربة مباشرة مع وحدة الله، أصبحت لا تقاوم أكثر من أي وقت مضى للمستعدين للإصغاء لها، من خلال تعزيزها بأصوات متعددة على كل أفق، أي أصوات القديسين من ديانات أخرى يشهدون بنفس إمكانية السمو الإنساني، وبالامتداد لحقيقة الدين عامةً، بمذهبه {الذي ينص على} أن أشياء هذا العالم هي مجرد انعكاس لحقائق أعلى.

إذا كان يمكن أن يقال إن الإنسان يتراجع جمعيًّا بزيادة متواصلة متباعدًا عن الحق، فإنه يمكن أيضًا أن يقال على جميع الأصعدة أن الحق

يزيد تضييق الخناق على الإنسان. تقريبًا، يمكن أن يقال إنه للحصول على لمحة من الحق، والتي كانت تتطلب في السابق مجهودات حياة كاملة، كل ما هو مطلوب اليوم منه الآن هو عدم الانكماش {أو التراجع}. وما أصعب ذلك!

الأديان واضحة تمامًا فيما يخص التعويضات الكبيرة لصعوبات العصر المظلم، وهذه التعويضات مقيّدة بأن تزداد بزيادة متواصلة، بينما يقترب العصر من نهايته. تبعًا لمثال {الإنجيل} الذي يحكي عن عمال الكرمة، هؤلاء الذين أتوا ليعملوا قبل الغروب بفترة قليلة، قد تلقوا نفس الأجر مثل الذين عملوا عملًا شاقًّا أثناء حرارة اليوم؛ وفي الدين الإسلامي، فقد روى الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنكم في زمان من ترك منكم عُشْر ما أُمِرَ به هلك، ثم يأتي عليكم زمان من عمل منكم بعشر ما أُمِرَ به نجا».

لكن ذلك لا يعني ضمنًا أن أي شيء ينقصه الكمال يمكنه أن يمر أبدًا من خلال بوابة الجنة. في الديانة الهندوسية، لا تقول الڤيشنو – پورانا **Vishnu-Purana** إن المطلوب اليوم فضيلة أقل من البشر، لكنه «في العصر المظلم يستطيع الناس أن يحققوا أعلى فضيلة بمجهود قليل جدًّا». بالتشابه، قال النبي ﷺ إن صلوات المسلم اليومية الخمس المفروضة كافية، ليست في حد ذاتها، لكن لأن الله يحسبها بأنها تساوي خمسين من صلوات الأقدمين.

الشيء الموجب في الوقت الحاضر، فيما يخص الدورة بأكملها، أنها تمثل كمالها ووضعها النهائي الثابت: يمكن للدورة أن تصل إلى

نهايتها، فقط عندما تكون قد أتت بثمار، {وحققت} كل الاحتمالات المختلفة التي كانت كامنةً عند بدايتها؛ يمكن، حين ذلك فقط، للفلك الأكبر، العالم الخارجي، أن «يُطوى مثل الدرْج الأسطواني المكتوب»، ليعطي مكانًا «لسموات جديدة وأرضٍ جديدة». بالتماثل، نفس الشيء حقيقي في الفلك الأصغر، العالم الصغير للنفس الفردية؛ عندما تنجح النفس في تكامل كل عناصرها، يمكنها فقط أن «تموت» وعندئذ يمكن أن «تولد» نفس جديدة وكاملة. إن تحقيق هذا «الموت» و«الولادة الجديدة»، إما قبل أو بعد وفاة الجسد، هو هدف كل ممارسة روحانية؛ لأنه «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ، لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ الله»(٤٩). لكن لكل فلك حقيقي مركز، وسيكون حقًّا بلا شك أن نقول إن معظم النفوس اليوم متفككة جدًّا، غير مدركين تمامًا بالمركز في داخلهم، ليُعتبروا كأفلاك صغيرة. لقد فقدوا هويتهم، إذا جاز التعبير، كونهم قد ابتلعوا في الفلك الأكبر، حيث إن وظيفتهم هي مجرد وظيفة جزئية تمثل احتماليات مختلفة لانحطاط الإنسان. لكن إذا استطاعت نفس أن تتحرر من الفلك الأكبر، وتجعل من نفسها فلكًا صغيرًا مرةً أخرى عن طريق الدين الذي ينعم عليها على الأقل باتصال فعليّ بمركزها، أو بعبارة أخرى، إذا كان للنفس القوة لإعادة تأسيس ذاتها كعالم صغير بجانب العالم الكبير، إذَنْ يمكنها أن تستفيد، بنوع من الانكسار **refraction**، من كل ما هو موجب في العالم الكبير. الوضع النهائي الثابت، والكامل في فلك أكبر يسرع نحو نهايته سيساعد في أن

(٤٩) يوحنا: ٣:٣. {النص الإنجليزي يحتوي على كلمة ‹من جديد› بدلًا من كلمة ‹من فوق› التي استخدمناها هنا، والموجودة في كل الأناجيل باللغة العربية. المترجم}.

يُعَجِّل الوضع النهائي الثابت والكمال في الفلك الصغير، مسببًا للنفس في أن «تُدَمر» بمعنى موجب بحت؛ وبما أن ذلك هو أيضًا تأثير الطقوس المقدسة في نفس الوقت، والتي غرضها هو تحقيق كل نفس {أن تأتي بثمارها}، يمكن أن يقال إن الطقوس «تؤخذ بعين الاعتبار» أكثر من قبل؛ لأن القوة الدافعة للأزمنة مُلجمة بالقدرة التي تمتلكها في حد ذاتها.

إن سبب تسلم كل العاملين في الكرمة نفس الأجر يرجع إلى أن القادمين مؤخرًا، بسبب اختلاف في الشروط نسبةً إلى العناية الإلهيّة، كانوا في الواقع قادرين أن يجمعوا، في خلال مساحة قصيرة من الزمن، نفس كمية الفاكهة التي جمعها هؤلاء الذين عملوا طوال النهار الحار.

* * *

ملحق ١

تدمير التقليد المسيحي، المشار إليه في الفصل السادس – الهامش رقم ٤٨، يعطينا تقريرًا مكتوبًا ببراعة وموثقًا بالمراجع لما حدث قبيل وأثناء وبعد المجمع الفاتيكاني الثاني. قبل كل شيء، المؤلف مهتم بما هو يتبع التقليد وما هو بِدْعيّ {هَراطِقىّ}، ومعالجته المباشرة والسهلة والواضحة في مجملها لموضوعه مبنية على قرارات المجامع السابقة وتصريحات أعظم المرجعيات الكنسية طوال القرون السابقة. ما كتبه المؤلف مُكْتفٍ بذاته ولا يحتاج أي إضافات. لكن مع ذلك ومن زاوية مختلفة قليلًا، وإذا جاز التعبير لمواجهة الذين يجارون العصر الحديث وأفكاره على أرضهم التي هي النفسية النفعية، لذلك سنضيف هنا الملاحظات التالية.

المسؤولون عن التغيّرات المشار إليها دافعوا بأن الدين يجب أن يتمشى مع الزمن، ويجب أن يُرَدَّ على ذلك بالآتي: «لا» إذا كان يتمشَّى معناه ألّا يكون نفسه، ويصبح متواطئًا مع الزمن. لكن التمشي أو التطابق الحقيقي مختلف: على سبيل المثال، الطب ليتمشَّى مع عصر ما، يجب أن يكون قادرًا على توريد ترياق لكل الأمراض الأكثر انتشارًا. بالتماثل، لن يكون من غير المنطقي الإبقاء على أن التمشي مع عصر يتميز بالتغيير

العنيف والقلاقل الصاخبة، يجب على الدين أن يكون مستعدًّا أكثر من أي وقت لأن يعرض، بل أن يعلن، (عن) الاستقرار الصلب الذي من دونه، كمركبة للحقيقة الأبدية، لا يمكن (للدين) أن يكون في أي حالة صادقًا مع نفسه. لا يوجد شك في أن النفس الإنسانية تشعر باحتياج عميق لشيء يظل ثابتًا دائمًا في حياتها، ولديها الحق في أن تتوقع أن تكون ديانتها هي الثابت (الذي لا يختل) المستديم الذي يفي بهذا الاحتياج.

لقد ضرب مجمع الفاتيكان الثاني عرض الحائط بمثل هذه الاعتبارات. إذَنْ إنها ليست بالمفاجئة أن تكون قد رسَّبت أزمةً لا نظير لها، ويمكن قياس خطورة الموقف، لحد معيَّن، بالأرقام التالية. ما بين أعوام ١٩١٤ و١٩٦٣ استلمت الكنيسة الكاثوليكية ٨١٠ طلبًا من قسس للسماح لهم بالتخلي عن وظيفتهم ككهنة، ومن هذه الطلبات تم قبول ٣٥٥ طلبًا فقط. منذ اجتماع المجمع كان هناك ٣٢٠٠٠ ارتدادٍ عن الكهنوتية، بدأ في ١١ أكتوبر ١٩٦٢ برعاية البابا يوحنا الثالث والعشرون، واختتم في ٨ ديسمبر ١٩٦٥ في عصر البابا بولا السادس. بما يعني أن عدد الكهنة المرتدين كان في فترة قصيرة جدًّا. هذه الأرقام يجب أن تُؤخذ لتشير جزئيًّا إلى مجرمي الأزمة وجزئيًّا إلى ضحاياها؛ وبالنسبة للانتقام، الذي يخص كلًّا من رجال الدين والعلمانيين، ومما له من أهمية كبرى أن الطقوس الدينية التقليدية لم تثبط عزيمتها فقط ولكنها مُنعت صراحةً. كانت الاستراتيجية ستفشل تمامًا لولا أن الأغلبية الكبرى من العِلمانيين – وذلك ينطبق أيضًا على رجال الدين أنفسهم بقدر معيّن – يقعون تحت وهم أن الطاعة التي يدينون بها للهيرارخية

الكهنوتية هي طاعة مطلقة. أحد مزايا كتاب راما كوماراسوامي Rama Coomaraswamy العظمى أنه يظهر بوضوح، عند أي نقطة تصبح الطاعة خطيئةً تبعًا للمذهب الكاثوليكي التقليدي الصارم، وعند أي نقطة تصبح السلطة، حتى سلطة البابا، باطلةً ولاغيةً.

❊ ❊ ❊